آلان واتس

حكمة انعدام الأمن

رسالة إلى عصر القلق

Telegram:@mbooks90

ترجمة:
أميرة الوصيف

حكمة انعدام الأمـن: رسالة إلى عصر القلق

آلان واتس

ترجمة: أميرة الوصيف

منشورات سدرة

بريد إلكتروني:

Sidra.publisher@gmail.com

انستغرام:

@sidrapublishing

تويتر:

@sidrapublishing

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

ردمك: 978-9921-768-89-3

الكتاب الأكثر مبيعًا في العالم

حكمة انعدام الأمن:
رسالة إلى عصر القلق

تأليف الفيلسوف البريطاني الشهير:

آلان واتس

تقديم: ديباك شوبرا

ترجمة: أميرة الوصيف

أحد أهم كتب الفلسفة في العصر الحالي

النيويورك تايمز

2023

مقدمة

كتبها: ديباك شوبرا

إن كل كتاب يعد بمنزلة رحلة قائمة بذاتها، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن يرمي إلى السفر إلى كل مكان، ويستهدف الوصول إلى أي مكان. تبدأ أحداثه برصد تلك الحالة من القلق التي يعيشها القليل من الناس. إنه يثير الشكوك حول الاعتقادات المُشتركة كما أنه يتعامل مع الأشياء المُقَدسة بحسٍّ تمتزج فيه روح الدعابة والمزاح كما لو كان يرغب في التأكيد على أوجه إخفاقاتها، بالإضافة إلى ما سبق يكشف الفيلسوف آلان واتس عن مُفارَقَة أخرى تقول إن حالة الشعور بعدم الأمان هي عِلَّة نفسية كما أنها في الوقت نفسه تفتح بابًا لواقع خفي غير مرئي يعد بدوره المكان الوحيد الذي توجد فيه دائمًا طرائق علاج الخوف والقلق، مع أن تلك العناصر تسير في اتجاه مُغاير. لقد نجح كتاب «حكمة انعدام الأمن» الذي نُشِر في عام 1951 في جذب المزيد من القُراء الذين وقعوا أسرى لسِحره الأخاذ، ويمكنني أن أفتخر حَقًّا أنني كنت أحد هؤلاء.

ما زلت أذكر أنني كنت حينها في مُنتَصَف الثلاثينيات، عُمر آلان واتس نفسه عندما نُشر كتابه أول مرة، لقد وجدت في واتس خلال تلك المرحلة المُرشِد المثالي لتصحيح مسار الحياة بعيدًا عن تلك الفلسفة المادية ووعودها الفارغة، فقد توجه ذلك المسار الحياتي الجديد إلى تلك المنطقة البعيدة التي لا يأخذها أحد في حسبانه، تلك المُقاطَعة النائية التي تتمثل في اللحظة الراهنة، فكما صرح واتس في تلك اللحظة توجد خبرة الكون برمتها.

Telegram:@mbooks90

«فإذا كانت السعادة دائمًا تعتمد على توقع شيء ما في المستقبل فهذا يعني أننا نُطارِد مجرد سراب يصعب علينا الإمساك به بأيدينا، وتستمر الحال على هذا المنوال حتى نتلاشى برفقة مستقبلنا ذاك في تلك اللحظة التي نقف فيها على حافة الموت».

إن ذلك التصريح النموذجي الذي أدلى به آلان واتس والذي اتسم كُلِّيًا بالطموح قدم بدوره أيضًا فكرة جديدة للمساعدة على حساب تقويض كل شيء يتمسك

به القارئ، ففي مدة ما بعد الحرب في أمريكا كانت الحياة تتركز على بحث سُبل التقدم والتطلع لإغراءات المستقبل. أخذ الجميع يتساءلون بجنون أين كنا؟ أين كانت وجهتنا؟ وقد قادتنا تلك التساؤلات إلى الصعود إلى سطح القمر أولًا والتَطلُع إلى الوصول إلى النجومِ يومًا ما، ثم حاصرنا ذلك السؤال المُلِح في وقتٍ لاحق الذي يقول: بكَم نستطيع أن نُحَقق كل شيء؟ ما الذي يضمنه لنا النجاح؟ وكانت الإجابة: الثروات والقناعة التي لا يُمكِن لأحد انتزاعها مِنا مُطلَقًا.

كان واتس بمنزلة تلك الذبابة المُزعجة التي حاولت إيقاظنا من سُباتنا العميق، وقد عدّ ما نُسميه تطورًا مجرد خدعة زائفة، وأن تلك الأحلام التي تُراودنا حول المستقبل ما هي إلا هروب فِعلي من الألم الناجم عن مخاوفنا تلك الأيام. فما يُعرَف شَعْبِيًا الآن باسم «قوة الآن» هو ما نجح آلان واتس في مُعالجته وطرحه منذ خمسين عامًا.

عندما ننظر إلى الوراء نُدرك أن آلان واتس كان بمنزلة موسوعة روحانية كما أن له الأسبقية، ويعد أعظم مَن كتب في ذلك الحقل. فقد قرأ بشراهة ونَهَم في مجالاتِ الفلسفة، والدين، وعلم النفس، ومجالات العلوم؛ كان أشبَه بإسفنجة مُزَوَّدَة بمئة ذراع إن جاز التعبير.

أنتج آلان واتس هذا الكتاب الصغير خلال نقطة تَحَوُل في حياته الشخصية. كان ذلك في عام 1951 عندما فقد واتس وظيفته بوصفه قسًا، وكذلك أيضًا فقد زوجته اليافعة في حادثة طلاق، ثم كرس اهتمامه مددًا طويلة في السابق لدراسة تعاليم فلسفة الَزِّنّ البوذية التي سحرته وجعلته يُحاول قضاء سنوات عمله في الحقل الديني يُحاول الدمج بين الصوفية الروحانية الغربية والشرقية.

كاد آلان يكتشف نفسه بالفعل في خِضم دراسته تلك التعاليم القديمة وحكايات البلوغ والصبا، ولكنه كان ليفعل ذلك بأغرب طريقة إذ إنه صرح لاحقًا من خلال فلسفته الخاصة أنه ما من ذات أصلًا لاكتشافها!

لن يتحقق مفهوم السعادة الدائمة الذي كان يمثل ذلك المسعى الكامن لمعظم كتابات واتس تقريبًا إلا بالتخلي عن الأنا التي تعد من وجهة نظر واتس مَحض خيال،

فمهمة الأنا هي دفع الواقع جانبًا، فهي التي تبني المستقبل من واقع تلك التوقعات والتطلعات الفارغة، وكذلك بالاستناد إلى تلك الذكريات المؤسفة المُمتزجة بالندم، فكما عبر آلان واتس عن تلك المسألة بصياغته البسيطة قائلًا:

«لا قيمة للغد ولا لتلك الخطط التي تعدها من أجله ما دمت لست مُتصلًا بالواقع الحاضِر، فلا يمكنك العيش إلا من خلال حاضرك».

تمامًا وكأنه واعظ مُحَنَك بدا واتس مُتصلًا بتلك الحقيقة العُليا ومُشَددًا عليها، لكن الرسالة الشديدة الإلحاح بدت شائكة للغاية حتى يتم تناولها عبر منبر الأسقفية، تخيل مثلًا ذلك المسيحي المؤمن الذي يعتز بمكافأة الجنة وكذلك يتمسك بفكرة البعث الثاني للمسيح يستمع إلى تلك الكلمات الآتية:

«لا يوجد واقع آخر سوى ذلك الواقع الحاضر، وبناءً عليه فحتى لو عاش المرء سنواتٍ طويلة لا نهاية لها فمن الحمق حقًّا أن يعيش من أجل المستقبل». وبتلك الانتقادات السريعة الخاطفة هدم واتس فكرة العالم الآخر وبدّد أي أمل يتعلق بوجود عالم أفضل آتٍ.

كان واتس بمفرده يُحارِب في البرية حينها، ولاقت تلك النبرة الغريبة الأطوار التي كانت تخص الاشتغال على الفكر الشرقي قبولًا في بلده الأم إنجلترا، وذلك لأنها استحوذت على الهند، وأيضًا حصلت على موطئ قدم قوي في الصين، وبناءً عليه فقد أنتجت إنجلترا بعض العقول التي تتمتع بالاستعدادية الكافية للغوص عميقًا في تلك الأفكار التي تخص الأفيدانتا الهندوسية، وكذلك الفلسفة البوذية أكثر من اهتمامها بتلك الأفكار الاستعمارية الضيقة، لكن وضع أمريكا كان مُختلفًا، فلم يكن هناك أحد بحاجة إلى أن يسمع ذلك المغرور المُتعَجرِف الذي كان يظن نفسه عارفًا بكل تلك المسائل الروحانية (كان وصف آلان واتس الذاتي لمجال عمله هو «فيلسوف هزلي ترفيهي»، مع أنه كان أكثر من ذلك بكثير) لكن عندما راجعت تلك الحجج التي قدمها بجرأة في كتابه «حكمة انعدام الأمن» شعرت فعلًا بصدمة تلك الحقيقة التي باغتتني عندما وجدت أن واتس كان قد استلهم عنوان فصله الأول «عصر القلق» من إحدى تلك القصائد الملحمية الشعرية التي كتبها ويستن هيو أودن،

وقد كشفت الفقرة الأولى أيضًا عن الحقائق الأربعة النبيلة التي تبناها بوذا في نهجه الخاص التي تؤكد أن الحياة تمتلئ بصور المُعاناة، لقد كان آلان واتس ماكِرًا ذَكِيًا بما يكفي حتى يتجنب ذكر اسم بوذا، وبدلًا من ذلك فقد نظر مباشرةً إلى قلب القارئ الذي يعيش في ظلال المتفجرات والقنابل طارحًا سؤالًا أبديًا تشكّل بدوره خلال أزمة الوجودية التي تمت إثارتها في الخمسينيات: هل من الممكن فعلًا أن تكون الحياة البشرية ليست أكثر من مجرد ومضة قصيرة من الزمن؛ تلك المدة التي تشهد الفوضى والآلام الفاصلة بين مرحلة الظلام التي تسبق لحظة الميلاد وتلك التي تعقب الموت؟ فقد كتب واتس في ذلك اَلصَّدَد يقول:

«نحن نعيش حالة غير عادية من انعدام الأمن، فبعد قرن من الزمن انهارت القيم التقليدية -تحديدًا المعتقدات الدينية- على كل المستويات، وبناءً عليه فقد أصبحت ردود الفعل تجاه تلك الحالة من الاضمحلال تتلخص في وسيلتين؛ وهي شعور المرء بالارتياح الشديد نتيجة تخلصه من كل تلك الأغلال القديمة، أو بالقلق من أن تلك الحالة من التعقل والمنطقية الشديدة قد تفسح مجالًا للفوضى، لكن واتس أراد التنقيب عن طريق ثالث مُشيرًا إلى أن تلك المُعتقدات قد تلاشت في ظل وجود الشكوك المتأنية والفحص، وهذة هي الإشارة الأولى التي جعلته يُرَحِب بتلك الحالة من انعدام الأمن التي يخشاها الآخرون وسرعان ما أصبحت بدورها الفكرة الرئيسة للمُناقشة دون الحاجة إلى استيراد أي مفاهيم أو أفكار شرقية ربما تُثير ذُعر القارئ، ومع ذلك قد قَدَم واتس بالفعل أهم أساسيات الفلسفة البوذية وأبرزها وتتمثل في دراسةٍ واعيةٍ مُتَزِنَة لكل ما يقف أمامك بغض النظر عن الافتراضات.

يُمكننا القول إنه عن طريق التَمَسُك بذلك الحِس الانفتاحي نصبح قادرين على العثور على الحقيقة كاملةً داخل أنفسنا، تلك الأمور الواعدة التي استطاع القديسون والحكماء تعلمها من كل حكمة تقليدية، هناك حيث رفض بوذا الإجابة عن تلك الأسئلة التي تخص الوجود الإلهي، لقد كان واتس أكثر ميلًا إلى تحطيم الأصنام، وقد نجح في استخدام الفيزياء الحديثة ليُثبت ذلك مؤكدًا أن ما من دليل مادي يثبت تلك المسألة على الإطلاق (ذلك التنبؤ الطائش المُتَهور، ولكن هذا يدفعنا إلى التساؤل قائلين: كيف استطاع آلان واتس التنبؤ بنظريات الكم التي تُشير إلى تَشَبُع

الكون بكل هذا القدر من الذكاء اللا نهائي؟).

لا يمكننا إعادة فرض تلك الأساطير القديمة على أنفسنا، ولا يجدر بنا أيضًا صناعة خرافات جديدة فقط من أجل رغبتنا في الشعور بالراحة، فالطريق إلى دراسة الذات ونقدها هو الطريق الوحيد الذي يتعين على كل شخص ذي ضمير اتباعه، خلاف ذلك فنحن فقط نخدّر أنفسنا كليًا من أجل الحصول على حياة عبثية لا معنى لها، وذلك من أجل مُصادرة السعادة الحالية تجنبًا للشعور بالألم- تلك الاستراتيجية العقيمة غير المُجدية التي تراجع عنها واتس في أثناء استعراضه الحقيقة النبيلة الثانية طبقًا للفلسفة البوذية التي تؤكد أن السعادة لا تُعالِج الألم، ولكنّ كليهما يتصل بالآخر.

عندما يجد المرء نفسه مُحاصَرًا بين الخرافات البالية واليأس، ربما يمكنه حينها اللجوء إلى طريق آخر الذي يتطلب بدوره ثورة في التفكير، ومن نكد الدهر أن هذا الطريق الثالث سوف يبعث الأشياء ذاتها التي يتعين على المرء إنكارها من أجل مواصلة السير!

كتب واتس في ذلك السياق أيضًا: «إن ذلك الواقع الذي يتوافق مع مفهوم الإله أو الحياة الأبدية هو واقع صادق عادل فوق مستوى الشُبهات، وهو الذي يسمح للجميع بالرؤية بكلِ وضوح، لكنه يتطلب أولًا إجراء تصحيح لمسار العقل تمامًا كما الحال فيما يتعلق بالرؤية الواضحة فهي تتطلب تصحيحًا للعين».

لقد تطلب الأمر من واتس أن يناقش في نحو عشرين صفحة فقط من أجل الوصول إلى تلك النقطة التي تُشَكِل البداية الحقيقية للرحلة، ولأن واتس تحلى بالبساطة والصبر والمُباشَرَة فقد تمكن من خلق جو مُميز، فسيجد القارئ نفسه مسحورًا ناسيًا تمامًا إن كانت هناك حجج معينة اختلف معها يومًا من تلك المطروحة أمامه، وهذا تحديدًا هو ما يُحسَد عليه أي مؤلف ناجح، ويرجع ذلك إلى موهبة آلان واتس الاستثنائية في ذلك المجال.

تمكن آلان واتس من التوصل إلى تلك الحقيقة القائلة إن «الخوف يُولَد نتيجة شعور المرء بالازدواجية» عبر اطلاعه على نصوص كتاب الأبانيشاد الخاص بالديانة الهندوسية، وقد تحدث بشكلٍ مُطَوَل في فصلٍ كامل عن كيفية اختبار الحيوانات

الألم دون رهبة أو خوف ويغمر القلق والتوتر البشر بسبب تلك الحالة من الانفصال والفرقة التي تعيشها أرواحنا.

في الواقع لا أرغب في إعطاء انطباع بأن كتاب حكمة انعدام الأمن هو مجرد كتاب بوذي للمبتدئين، فالأمر أبعد ما يكون عن ذلك، فقد وضع آلان واتس نصب عينيه على الدوام مسألة تذكيرنا الدائم بمحاولة قيامه بنهضة بناءة في اتجاه تلك المفاهيم الصعبة مُرَكزًا تحديدًا على أنه ما من شيء اسمه الكبرياء الذاتي، لكن بعدّ تلك الصفة أشبَه بمرآة لحالة الانقسام التي نُعانيها، فقد جزأنا على الفور العالم إلى تجربة داخلية وأخرى خارجية، فنحن بذلك نُعَزز انفصالنا دون أن نُدرِك أن هناك واقعًا واحدًا.

إن الكون هو عملية واحدة تحدث في إطارٍ من الوعي، ويُمكننا أن نُطلِق عليها اسم التيار الأعظم، وعن طريق اندماجنا في تلك العملية يمكننا أن نكتشف مَن نحن حَقًّا، فما من تجارب خارجية من شأنها أن تدعمنا لأن تَدَفُّق الأحداث يتسم بالحتمية ولا مَفَر منه، فالوقت نفسه من ابتداع ذلك العقل المُضطرب، كما أن الفضاء أيضًا خلقه العقل نفسه ليُعطيه مساحة للتجول بعيدًا، لكن في حقيقة الأمر ما من مساحة أخرى خلاف ذلك البناء العقلي الذي حاله كحال البناءات كافة يستحيل إلى سجن في نهاية المطاف، تلك الأفكار التي يتعذر على المرء إدراكها واستيعابها والالتزام بها.

إن الإستراتيجية التي اتبعها واتس لم تكن بوذية الطابع لكنها عادت إلى أقدم الرؤى التي تنتمي إلى الديانة الفيدية الخاصة بدولة الهند والتي من شأنها أن تتخلص من كل تلك الأشياء غير الحقيقية وتُبقي على الأمور الحقيقية وحدها، ومع أنها طريقة بسيطة فإنها تتبع نهجًا قاسيًا لا يرحم، إذ إن هناك المزيد من الأشياء حولنا التي نتقبلها على أنها حقيقية مع أنها شديدة الرمزية فكما يقول آلان في تلك النقطة:

«إن الأفكار والآراء والكلمات هي بمنزلة عملات الأشياء الحقيقية».

وهذا يجعلنا نتساءل على الفور وإلا فلماذا تُؤلّف الكتب بوجهٍ عام؟ لأن الكلمات

تمتلك تلك القدرة على الإشارة إلى الاتجاه الصحيح كما أن باستطاعتها أيضًا تسليط الضوء على ومضات الحكمة المُهمَلَة، وكذلك تتمتع بالقدرة على إشعال شرارة السخط والاستياء في نفوسنا، ومع أن آلان واتس بذل قصارى جهده من أجل تحقيق تلك الأهداف خلال رحلته الشاقة فإنه أدرك أن الخريطة لا تُطابِق الإقليم الذي تُمَثِله.

يمكن الإشارة أيضًا إلى أنه من المُمكن ملاحظة تلك الحالة من التساؤل العادي خلف صوت المؤلف الرسمي التي تجعل سعيه يبدو هَشًا بعض الشيء، فهو لم يهرب من سجن الذات المُنقَسِمَة لكنه أدرك جيدًا أن ليس باستطاعته اَلتَّحَرُّر عن طريق الاستعانة بأي تجربة عادية النوع لكن يمكنه ذلك عبر الاستناد إلى شيءٍ ما خارج الزمن الذي نُطلِق عليه اسم «اليقظة».

إن مفارقة اليقظة تكمن في أن حالة الاستيقاظ التي نتعرض لها جميعًا في الصباح ليست قادرة على تحقيق ذلك لأنها حتمية الحدوث، وهذا بدوره ينطبق على الجانب الروحي، فأنت لا يمكنك أن تتمنى أو أن تصلي أو أن تتوسل أو أن تتأمل وأنت في حالة كاملة من اليقظة حتى أن مسألة رصدك النوم في حد ذاتها في غاية الصعوبة.

تلك الومضة من الوعي تبدو كأنها تُلَمِّح إلى واقع آخر، يمكننا القول أيضًا إن آلان واتس حاول استغلال ذرة الشك تلك بكل افتتان سواء أستغلها من خلال طرحه في هذا الكتاب أم استغلها في أعماله الأخرى، فكما يرى واتس أن العقل يعيش في دوامة تجعله يفقد نفسه ثم يجدها في آنٍ واحد، وبناءً عليه فإن كل رحلة روحية تنتهي بإغلاق تلك الدائرة، فالعقل المذعور الخائف يهرب بعيدًا عن تلك الأهوال التي يلتقيها خلال رحلة السعي إلى الوصول إلى عالم أفضل، وعندما تنضم إليه يستنفد ذلك الوهم ولم يعد هناك حيل ليلعبها العقل، وفي تلك اللحظة تحديدًا يشعر المرء بعدم وجود نور للجنة ليسطع في الأفق، ويجد شيئًا أفضل من كل هذا الذي يتمثل في الكمال وسيكتشف المرء حينها أنه شُفي من حالة الانقسام الذاتي التي عاناها عقله عبر طريقٍ طويل امتزجت فيه الآمال بالخوف، ويجد أن باستطاعته العثور على السلام داخل عقله في مرحلة من الوعي التي تتخطى مسألة التفكير

المُجرّد، فهذه هي النقطة النهائية لبلوغ حكمة انعدام الأمن تمامًا كما طبيعة كتب الحقائق كافة لا تُسلّم بشكلٍ أنيقٍ مُرَتَّب، لكنّ كتابًا كهذا يُمكنه رسم الدائرة من أجلنا، تلك التي تُمَكّن المرء من الأداء على نحوٍ مُدهِش، فأي شخص بحاجة ماسة إلى تصحيح المسار ذاك حتى يُمكنه الاهتداء به، ويُمكنني القول إنني كنت أحد أولئك المحظوظين الذين أمكنهم الاسترشاد بهدي ذلك الكتاب خلال الثلاثين عامًا اللاحقة من حياتي.

مقدمة المؤلف

لطالما كنت مَفتونًا بقانون «الجهد المعكوس» الذي أُطلِق عليه في بعض الأحيان اسم «القانون المَقلوب»، ففي تلك اللحظة التي تُحاول فيها أن تبقى على سطح المياه تغرق، وعندما تُحاول أن تغرق تطفو! وعندما تحبس أنفاسك تفقدها، وهذا يُذكرنا بتلك المقولة القديمة المَنسية:

«مَن يحاول حماية روحه قد يفقدها».

يعد هذا الكتاب بمنزلة اكتشاف لسعي المرء وبحثه عن الأمن النفسي ولتعزيز جهوده من أجل العثور على اليقين الروحي والفكري في الدين والفلسفة، فلقد كنت على قناعة تامة بأنه لم يكن هناك فكرة أخرى أكثر ملاءمة خلال ذلك الزمن الذي اتسمت فيه حياة البشرية بعدم الإيمان وضياع اليقين، ولقد تَبين بعد ذلك أن حالة انعدام الأمن تلك لم تكن إلا نتيجة لرغبة المرء الدائمة في أن يشعر بالأمان، فكما اتضح أن العزيمة والخلاص والعقلانية تتمثل في الاعتراف الجذري أنه ما من سبيل لإنقاذ أنفسنا.

قد يبدو الأمر أقرب إلى قصة أليس في المرآة الزجاجية الخيالية، فالكتاب أحد أنواع تلك الأعمال المُكافِئة للفلسفة، ولهذا السبب ربما يجد القارئ نفسه بغتةً في عالم مقلوب رأسًا على عقب، إذ إن كل تلك الأشياء الطبيعية العادية فيه تبدو معكوسة تمامًا، في تلك اللحظة أيضًا التي ستتخبط فيها الفطرة السليمة للمرء من الداخل إلى الخارج، عندما تُدرك الروح والذات العُليا أشيَاء مُتناقضة كُلِّيًا مع ما قلته في السابق، ويمكنني القول إن هذا الأمر ينطبق فقط على بعض الجوانب البسيطة فهؤلاء الذين قرؤوا كتبي السابقة مثل كتاب «تَأمُل الروح» سوف يدركون تلقائيًا أن الإطار العام أو سياق النص غالبًا ما يخفي المعنى، إنني أنوي هنا الاقتراب من المعنى نفسه طبقًا لفرضياتٍ مختلفة والتعبير عن ذلك بمصطلحاتٍ لا تُربِك الفكر وروابطه المُتعَددة التي يعتمد عليها الزمن والتقاليد.

لقد حاولت في تلك الكتب أن أدافِع عن مبادئ معينة في الدين، والفلسفة،

والميتافيزيقا عن طريق إعادة تفسيرها، كان ذلك كما أعتقد أشبه بوضع قدميك على ثعبانٍ ما، ويمكنني القول إن هذا التصرف كان غير ضروريّ ومربكًا، فوحدها الحقائق المشكوك فيها هي ما تحتاج إلى من يُدافِع عنها. إن هذا الكتاب يمثل ببساطة روح الحكيم الصيني لاوتزه أستاذ قانون الجهد المعكوس الذي صرح أن أولئك الذين يبررون أفعالهم وتصرفاتهم لا يمتلكون القدرة على معرفة الحقيقة إلا إذا تخلصوا من تلك المعرفة التي لديهم، فما من شيء أكثر قوةً وإبداعًا من الفراغ- تلك الحالة الذهنية التي يفر منها الناس، وبناءً عليه فإن هدفي هنا أن أعيد عقارب الموضة إلى الوراء من أجل تسليط الضوء على تلك الوقائع الأساسية في الدين والميتافيزيقا.

إن لمن دواعي سروري حقًّا أن أقِر وأعترف أن سهولة إعداد هذا الكتاب وتجهيزه ويُسره ترجع إلى سخاء مدير مؤسسة فرانكلين جاي ماتشيت في ولاية نيويورك وكَرَمه، ذلك الرجل الذي كرس الكثير من حياته من أجل بحث مشكلات العلوم والميتافيزيقا، وبعدّه أيضًا أحد رجال الأعمال النادرين الذي لم يغرق بشكلٍ كامل في تلك الدائرة المفرغة الخبيثة التي تخص جمع المزيد من المال، لقد كرست مؤسسة ماتشيت جهودها من أجل العمل على دراسات الميتافيزيقا، وليس سِرًّا أن أقول إن النهج الذي اتخذوه من أجل الوصول إلى ذلك كان بمنزلة ومضة نور وخيال بالنسبة إلي، إذ بدا مُناقضًا جِدًّا للطبيعة المعرفية للميتافيزيقا نفسها.

آلان واتس

سان فرانسيسكو

مايو 1951

عصر القلق

بالنَّظَرِ إلى كل تلك المظاهر الخارجية يمكننا القول إن الحياة أشبَه بشرارة ضوء تُسافِر بين ظلامٍ أبدي وآخر، كما تتمثل المدة الزمنية الفاصلة بين ليلتين حالكتين في أحد تلك النهارات الصافية فكلما امتلكنا قدرة أكبر على الشعور بالسعادة أصبحنا أكثر عُرضَة وحساسية للألم، وسواء أتجلت تلك الحقيقة في خلفية الشيء أم تجلت في مقدمته فإن الشعور بالألم يُرافقنا على الدوام.

لقد اعتدنا بذل قصارى جهدنا من أجل إكساب وجودنا قيمة من خلال الإيمان أن هناك ما هو أكبر من المظهر الخارجي اَلْمُجَرَّد، وقد أقنعنا أنفسنا أننا نحيا من أجل مستقبل ما أبَعد من تلك الحياة الماثلة أمامنا، وذلك لأن المنطق الخارجي وحده لا يبدو مَنْطِقِيًا، فلو أن العيش ينتهي بحالة من الألم، والافتقار، والعدمية لبدت الحياة تجربة قاسية عبثية غير مُجدية لأولئك الذين يُولَدون من أجل التفكير، والأمل والإبداع، والحب، فالواحد مِنا يرغب في أن تكون حياته مُجدية منطقية، وبناءً عليه فإنه يجد صعوبة في ذلك إلا إذا آمن بوجود ما هو أكبر مما يراه، فلا يمكنه حَقًّا الشعور بقيمة حياته تلك إلا إذا اعتقد بوجود حياة أبدية خلف تجربة الموت والحياة غير اليقينية المؤقتة.

أعرف أنه ربما لم أُسامح لتقديمي القضايا الواقعية المتزنة بطرحٍ يغلب عليه الأسلوب الطائش المتهور، ولكن الإشكالية تتمثل في أن تجربة منطقة تلك الاضطرابات الفوضوية الظاهرة تُذكرني برغبتي الطفولية قديمًا في إرسال طرد من المياه عبر البريد العادي، وكنت أتخيل أن المُستَلِم سوف يفك السلسلة أولًا، ثم سيبدأ تحرير ذلك السيل من الماء الذي سيتدفق التوّة بين أحضانه، ولكن تلك اللعبة لم تنجح قط لأن من المستحيل حَقًّا أن تغلف وتربط رطلًا من المياه داخل حزمة ورقية وترسلها طَردًا لأحدهم.

ومع أن هناك أنواعًا مُحددة من الورق التي لا تهترئ أو تتفكك عندما يُبَللها الماء فإن الإشكالية الرئيسة تتمثل في إدخال الماء نفسه في إطارٍ ما قابل للسيطرة وَالتَّحكُّم، وأن نحكم إغلاق السلسلة دون تَفجير اَلطَّرد، فكلما درس المرء تلك الحلول

المجربة في مجالات السياسة والاقتصاد والفن والفلسفة والدين بات لديه انطباع أكبر أن أولئك الموهوبين بشدة يُحاولون إهدار قدراتهم وإنهاك إبداعاتهم في القيام بتلك المهمة المستحيلة غير المُجدية التي تتمثل في محاولة وضع مياه الحياة داخل طرودٍ أنيقة ثابتة.

ويمكننا القول إن هناك الكثير من المُبَررات التي جعلت إنسان العصر الحديث يتبع ذلك النَّهج، فنحن نعرف الكثير عن التاريخ، وعن تلك الطرود التي رُبطت بإحكام مددًا طويلة من الزمن لكنها تَمزقَت وانهارت في نهاية المطاف، كما أننا نعرف الكثير من التفاصيل عن مشكلات الحياة التي قاومت التيسير المبسط، وبدت أكثر تعقيدًا وبشاعة من ذي قبل، إضافة إلى ذلك فقد رفعت العلوم والصناعة إيقاع العُنف ووتيرته بشكلٍ ملموس أدى بدوره إلى تَمَزُّق تلك الطرود على نحو أسرع كل يوم، وهذا الأمر جعلنا نشعر بأننا نعيش في وقتٍ تحتله حالة غير عادية من انعدام الأمن، فخلال المئة عام الماضية انهارت العديد من العادات والتقاليد الراسخة التي تخص القيم العائلية والحياة الاجتماعية ووضع الحكومات والنظام الاقتصادي والمُعتقدات الدينية، ومع مرور السنوات لم يعد لدينا إلا عدد قليل جِدًّا من الصخور التي يمكننا الإمساك بها، تلك التي تُمَثِّل بالنسبة إلينا القيم الصحيحة الحقيقية الصالحة لكل الأزمنة.

ومع أن تلك المسألة تبدو تحررًا يرحب به البعض بعيدًا عن أغلال القيم الأخلاقية، والاجتماعية والمعتقدات الروحية فإنها تعد بالنسبة إلى الآخرين بمنزلة إشعار بناقوس الخطر نظرًا إلى ذلك الانتهاك المُرعِب الذي أفرط في استخدام اتجاهات العقلانية والمنطق من أجل إغراق الحياة البشرية في حالة من الفوضى الميئوس منها، وبالنسبة إلى الأغلبية فإن هذا الإحساس الفوري بالتحرر قد منحهم مُتعَة موجزة ثم أعقبها قلق عميق، فلو كان كل شيء نسبيًا، ولو كانت فعلًا الحياة أشبَه بسيلٍ دون شكلٍ أو هدف فإنه ما من وسيلة يمكنها إنقاذ ذلك التغيير، فما دام ليس هناك ما يُعرَف بالمستقبل فلن يكون هناك أي أمل لشعور الناس بالسعادة إلا في حالة وجود مستقبل يتطلعون إليه سواء أتمثل ذلك في غدٍ جميل أم تمثل في حياة أبدية تتجاوز مسألة القبر.

يجد الكثيرون صعوبة بالغة في الإيمان بتلك المسألة الأخيرة، وعلى الجانب الآخر فإن الأمر الأول له مساوئه كذلك، فعندما تصل تلك «الأوقات الجيدة» يكون من الصعب الاستمتاع بها كاملة دون الوعد بالمزيدِ منها في المستقبل، فإذا كانت السعادة دائمًا تعتمد على شيء يُتَوَقع حدوثه في المستقبل فهذا يعني بوضوح أننا نُطارد مجرد سراب ولا يُمكننا إحكام قبضتنا من أجل الإمساك به حتى تأتي تلك اللحظة التي نقف فيها برفقة مستقبلنا ذاك على حافة الموت.

في واقع الأمر، إن عصرنا لا يشهد حالة أكبر من انعدام الأمن عن بقية العصور، فالفقر والحرب والمرض والتغيير والموت ليست أشياء جديدة.

ففي أفضل الأوقات، لم يكن الشعور بالأمن أكثر من مجرد مسألة ظاهرية مؤقتة، وقد ساهم هذا بدوره في إمكانية استناد الإنسان الخائف الذي لا يُغادره الشعور بعدم الأمان إلى عددٍ من الأمور الثابتة غير المُتغيرة التي ربما تجعله بمنأى عن المصائب والكوارث ومنها الإيمان بالإله، وبخلود الروح البشرية، وبإدارة الكون بمجموعة من قوانين الحق الأبدية.

لقد أصبحت تلك الإدانات السابقة الذكر نادرة الوجود شيئًا فشيئًا حتى داخل الأوساط الدينية نفسها، شمل ذلك المستويات الاجتماعية كافة، فقد سببت موجة الحداثة وجود عدد قليل من الأفراد المتأثرين بالتعليم العصري، أولئك الذين لم يكن لديهم أدنى شك فيما يؤمنون به، يمكننا القول إن هذا في حد ذاته كان دليلًا ذاتيًا يؤكد أن سلطة العلم قد حلت محل سلطة الدين خلال القرن الماضي من الزمن في أذهان المُخيلة الشعبية العريضة، ونتيجةً لذلك أصبحت نبرة الشك أكثر عمومية وانتشارًا من نبرة الإيمان اليقينية فيما يتعلق بالأشياء والمفاهيم الروحية غير الملموسة.

إن اضمحلال الإيمان برز بوصفه أثرًا مُباشِرًا للشك الصريح الواضح والتفكير الجريء الشجاع لمجموعة من أذكى رجال العلم والفلسفة الذين قد تحمسوا بشدة لبذل قصارى جهدهم من أجل الكشف عن الحقائق مُحاولين بكل الطرائق أن يتأملوا ويفهموا ويواجهوا الحياة كما هي دون النظر إليها في ضوء مجموعة من الأفكار

الحالِقة.

في الواقع يمكننا الإشارة إلى أنه مع بذل هؤلاء العُلماء والمثقفين جهدهم من أجل تطوير الظروف الحياتية فإن صورة الكون في أذهانهم تبدو مُجردة خالية من أي أمل! إن ثمن الحصول على تلك المعجزات التي تمكنوا من تحقيقها هو اختفاء العالم القادم، وفي تلك اللحظة وجد الإنسان نفسه يميل إلى طرح هذا السؤال القديم نفسه القائل:

ما الذي يربحه المرء إذا كسب العالم كله وخسر نفسه؟

مع أن تلك المحاولات وأساليب التفكير السابقة قد أشبعت العقل فإن القلب ظل جائعًا. فقد اعتاد مددًا طويلة أن يشعر بأنه يحيا من أجل المستقبل، ومع أن العلم قد يضمن لنا مستقبلًا أفضل خلال سنواتٍ قليلة لكن كل ذلك سيتلاشى في نهاية المطاف، فلن تدوم حياة أحدهم إلى الأبد، لن تدوم مهما طالت مدة تأجيل الموت، فكل شيء يتكون من عناصر سوف يتفكك ويتحلل.

جميعنا نُدرك جيدًا أن هناك بعض الآراء التي تُخالِف ذلك، ولكن على أي حال تبقى هذة النظرة العامة للعلم في الأوساطِ الأدبية والدينية مع أنه من المُفتَرَض أن يُنظَر إلى ذلك الصراع القائم بين العلم والمُعتَقد الديني على أنه مجرد شيء ينتمي إلى الماضي. ثمة أمر مهم أيضًا يجب علينا الإشارة إليه، وهو أن هناك مجموعة من العلماء الذين يؤمنون بأن السبيل الوحيد لإنهاء ذلك الصراع بين العلم والدين هو تخلي الفيزياء الحديثة عن ماديتها الذرية الفَجة، ولكن الأمر لم يسر على هذا النحو على الإطلاق، فهؤلاء الذين يُكرسون حيواتهم من أجل دراسة الآثار الكاملة للعلم وأساليبه هم أبعد من أي وقتٍ مضى عما يُطلقون عليه «وجهة النظر الدينية».

صحيح أن الفيزياء النووية والنظرية النسبية منحتانا نظرة جديدة للكون التي تختلف بدورها عن المادية القديمة لكنهما أيضًا لم تخصصا مساحة تذكر تسمح بالإيمان بتلك الأشياء المُطلَقة، وهذا يجعلنا نُلَمح إلى أن عالِم العصر الحديث العصري ليس بتلك السذاجة التي تجعله يُنكِر وجود الإله فقط لأنه يتعذر عليه إيجاده تحت المجهر، أو أنه لا يؤمن بالروح لأنه غير قادر على فحصها مُستخدمًا

المشرط، لكنه لاحظ بالكاد أن مناقشة تلك الأمور لا تحمل أي ضرورة منطقية بدورها كما أنها لا تقودنا إلى نتيجة ما، ولا تجعلنا قادرين على وضع تنبؤات مؤكدة، فإن الجدال في تلك المسألة يُهدر طاقتنا فحسب، ولا يجعلنا نقول شيئًا، ففي تلك الأثناء التي ننشغل فيها بذلك نجد أنفسنا مُعَلقين في الهواء، لأن المصطلح لا يقدم لنا أي قيم على الإطلاق، ويمكنني القول إن وجهة نظر هذا العالِم العصري قد تكون صحيحة، وقد تكون خاطئة، لكني فقط أشعر بحاجة ماسة إلى الإشارة أن تلك الموجة من الشك ذات تأثير هائل وهي المسؤولة كذلك عن إرباك المزاج العام للعصر.

ما يقوله العلم بإيجازٍ شديد يتمثل في أننا لا نعرف ولا يُمكننا أن نتكهن إن كان الإله موجودًا أم لا، فما من شيءٍ نعرفه يُثبت تلك المسألة كما أن تلك المناقشات كافة التي تبنت هذة القضية أثبتت عدم منطقيتها في نهاية المطاف، ولا يمكننا أيضًا أن نُثبت أن الإله غير موجود، لكن عبء إثبات وجوده يقع على أكتاف أولئك الذين يُثيرون الفكرة من آنٍ إلى آخر فإذا قال العلماء إنك تؤمن بالإله فهذا يعني أنك تعتمد على شحنات عاطفية بحتة دون الاستناد إلى أسس منطقية واقعية، ربما تبدو تلك النظرة مؤدية إلى الإلحاد من الناحية العملية لكنها ببساطة لا تتبنى ذلك النهج فهي أقرب إلى الفلسفة اللا أدرية، فمن أساسيات الأمانة العلمية مثلًا ألا تتظاهر بمعرفة شيء أنت لا تعرفه، وألا تضع فرضيات لا يمكنك إخضاعها للاختبار لكن النتائج الفورية لتلك الأمانة بدت أكثر إرباكًا وإحباطًا، فقد تبين أن الإنسان غير قادر على العيش دون أسطورة ما، ولا يستطيع أن يحيا دون أن يؤمن بأن للروتين والعمل الشاق الذي يبذله والألم والخوف من الحياة مغزى ومعنى ما، لا يمكن للواحد مِنا أن يواصل مسيرته دون أن يدرك أن لديه هدفًا ينشد تحقيقه في المستقبل، ومن ثَم تظهر أساطير جديدة من العدم سواء أكانت سياسية أم كانت اقتصادية تمنحنا بدورها وعودًا باهظة بمستقبلٍ أفضل من خلال العالم الحالي، إن تلك الأساطير تجعل الواحد مِنا يشعر بضرورة الانخراط ضمن الأعمال الاجتماعية الهائلة، وحينها يفقد فراغ روحه ووحدته في خضم العمل وبذل الجُهد.

إن حالة العُنف الشديد التي تشهدها الأديان السياسية تخون بدورها كل هذا الكَم من القلق والتوتر المُختبئ تحتها لأنهم مجرد رجال يتزاحمون ويحتشدون من

أجل الصراخ في وجه بعضهم بعضًا كونه وسيلة لمنحهم الشجاعة الكافية من أجل مواصلة المُضي قُدمًا في الظلام.

وفي تلك اللحظة التي يشتبهون فيها أن الدين أسطورة، تختفي قوة الأخير على الفور، فمع أنه من الضروري امتلاك المرء أسطورةً حتى يتمكن من العيش فإن هذا لا يُمَكنه مثلًا من وصف علاج ما لصداع الرأس، فالأسطورة تعمل فقط إذا نظر إليها المرء على أنها حقيقة ولا يمكن للواحد منا أن يعرف ذلك مدة طويلة من ثَم فتجده يخدع نفسه دون قصد، فحتى أكثر المُدافعين العصريين عن الدين يتجاهلون تلك الحقيقة، وأقوى حججهم تتمثل في أن العقيدة تكشف لنا عن المزايا الاجتماعية والأخلاقية للإيمان بالإله لكن هذا لا يثبت بأي حالٍ من الأحوال أنه حقيقة، لكن يؤكد أن الإيمان بالإله أمر مُفيد.

فإذا لم يكن الإله موجودًا منذ البداية لكان لِزامًا علينا أن نخترعه، ولكن إذا كان الجمهور العام الحالي يؤمن بأن الإله غير موجود فلا جدوى من الاختراع، ويعد هذا أحد تلك الأسباب التي دفعت الأوساط الثقافية إلى مُهاجمة تصريحات العقيدة الأرثوذكسية الجوفاء مؤخرًا، تلك العبارات التي لا معنى لها والتي يتشدقون بها على الدوام وتتخطى مسألة الإيمان بالإله.

ثمة تناقض واضح بين ذلك الشخص العصبي المُتعَلِم العصري الذي تسكنه حالة دائمة من الشعور بعدم الأمان وذاك الهادئ الوقور المُتدين الذي ينعم بحالة عجيبة من السلام الداخلي. أعتقد أن الجميع يحسد الشخص الأخير على تلك السكينة التي يتمتع بها، لكن هناك حالة من إساءة تطبيق علم النفس على علم الأعصاب، فدائمًا ما تجد الشخص الملحد وأولئك من أتباع الفلسفة اللا أدرية أشخاصًا عصبيين جدًا في حين تجد أولئك الأشخاص المُتدينين البُسطاء ينعمون بالسعادة والسلام النفسي، ومن ثَم فإن وجهة النظر التي يتبناها الشخص الأول خاطئة والأخيرة أثبتت صحتها، فحتى لو كانت مُلاحظتهم صحيحة فالمنطق نفسه شيء عبثي في حد ذاته، فالأمر أشبه بأن تقول هناك نار في القبو، يُشعرك إيمانك بهذا بالتوتر والقلق على الرغم من عدم وجود نار هناك.

نحن لا نُهاجم فلسفة هؤلاء الأشخاص ولا نصفها بالوهمية ولكن ما نود قوله؛ إن التفكير على هذا النحو يجعل المرء غير قادر على السعي وراء اكتشاف الحقائق حتى يتمتع الواحد مِنا بتلك القدرة على التكيف مع نفسه، فهذا المُثقف الذي يُحاول الهرب من عصبيته الشديدة عن طريق تجنب الحقائق أقرب إلى ذاك الذي يركن إلى الجهل مؤمنًا بأن من الحمق أن يكون حكيمًا، فعندما يصعب على المرء الإيمان بالأبدية فإنه يبحث عن بدائل أخرى فقيرة، فالناس يحاولون البحث عن سعادتهم وسط مباهج الزمن، وإن تطلب الأمر المزيد من الوقت فإنهم يحاولون دفنها عميقًا داخل أرواحهم وعقولهم، فهم على وعيٍ تام بأن تلك المُتَع غير يقينية وموجزة، ومن هنا ينتج عن هذا أحد الأمرين إما أن يشعر المرء بالتوتر والقلق خوفًا من أن يفوته شيء ما وبناءً عليه يبدأ عقله رحلته الخاصة في الركض بكل عصبية وجشع خلف المُتَع الحياتية الواحدة تلو الأخرى دون أن يعثر على الراحة أو الشبَع، وإما أن يُباغته الإحساس بالإحباط لأنه يسعى دائمًا خلف مستقبلٍ جيد لن يأتي أبدًا، إذ إنه يعيش في عالم سيتحلل فيه كل شيء وينتهي، وهذا بدوره يجعل الواحد مِنا يتساءل: ما نَفع العيش إذًا في عصرٍ يسكنه القلق والتوتر والعصبية وإدمان المخدرات والمُنشطات؟

يجب علينا الإمساك جيدًا بتلك الأشياء التي نملكها، وأن نتخلص من إدراكنا المغلوط بأن كل شيء حولنا عقيم بلا معنى وغير مُجدٍ.

مكننا إدماننا على تناول المخدرات من الوصول إلى تلك النشوة التي أطلقنا عليها اسم «مستوانا المعيشي المرتفع»، ذلك التحفيز المُعقد العنيف الذي جعل عواطفنا أقل شاعرية، وبدورنا فقد اشتهينا البحث عن عوامل الإلهاء والمُشتتات، تلك اللمحة العامة التي تجتمع فيها المزيد من الصور والأصوات والإثارة، والتي تجعلنا جميعًا نطمح إلى امتلاك ذلك المستوى المعيشي المُحدد من الحياة التي تشتمل بدورها على القيام بعددٍ من تلك الوظائف المُملة من أجل البحث عن الراحة وسط كل هذا الضجر من خلال تلك المُتَع الباهظة المحمومة، فهذا هو الغرض الأساسي من فعلنا ذلك وتخيل ذاك التبرير لعملٍ كهذا أشبه بأن تحث عائلة ما على فعل الشيء نفسه ثم تذهب لحث عائلة أخرى على ذلك، وعلى هذا يستمر الأمر إلى ما لا نهاية. الأمر

ليس هزليًا فهذه ببساطة حقيقة ملايين الحيوات البشرية، ونتيجةً لذلك فنحن بحاجة ماسة إلى النظر بإمعانٍ في التفاصيل حولنا، وأن نلاحظ حالات التوتر والقلق التي تُصيب أولئك الذين يتحملون آثارها دون أن يعرفوا ما الذي بمقدورهم فعله، والسؤال هنا الآن ما الذي يتعين علينا فعله؟ فنحن أمام خيارين لا ثالث لهما، فالأول يتمثل في ضرورة اكتشاف أسطورة جديدة، ويرمي الخيار الثاني إلى إعادة إحياء أسطورة قديمة، فإذا لم يكن باستطاعة العلم إثبات أن ما من إله هناك، يمكننا أن نعيش ونتصرف وفقًا لاحتمال وجوده في نهاية المطاف، فما من شيءٍ نخسره خلال ذلك الرهان، فلو كان الموت هو النهاية فنحن لن نعرف أبدًا أننا خسرنا، ومع ذلك إن هذا لن يجعلنا نصل إلى إيمانٍ حيوي، فالأمر هنا ليس أكثر من قول لما كانت الأشياء تتحلل بطريقةٍ ما، دعنا نتظاهر أن الأمر ليس كذلك، يتمثل الأمر الثاني في محاولة مواجهة حقيقة أن الحياة ما هي إلا «حكاية رواها أحد البُلهاء الحمقى» وعلينا إذًا أن نبذل قصارى جهدنا قدر استطاعتنا، وأن ندع العلم والتكنولوجيا تخدمنا خلال رحلتنا تلك لتأخذنا من لا شيء إلى العدم مُجددًا.

لا تعد تلك المقترحات السالفة الحلول الوحيدة، فباستطاعتنا أيضًا تأمل وجهة نظر العلم النقدية الحاسمة، تلك التي تعترف صراحةً أن ما من أرضياتٍ علمية تكشف أن باستطاعتنا الإيمان بالإله أو بالخلود البشري أو بأي من تلك الأشياء المُطلقة، ربما حينها يمكننا أن نُجبر أنفسنا على عدم الإيمان بشيء، والتعامل مع الحياة بشكلٍ مُجرد كما هي أمامنا، انطلاقًا من وجهة النظر تلك فهناك طريقة واحدة لعيش الحياة التي لا تتطلب أسطورة أو يأسًا، لكنها تحتاج إلى ثورة كاملة في طرائق تفكيرنا الاعتيادية ومشاعرنا.

إن الشيء المُذهِل الذي يخص تلك الثورة يكشف بدوره عن الحقيقة المختبئة حول تلك الأساطير المزعومة والتقاليد الدينية والميتافيزيقا، فحينها فقط سيتمكن الواحد مِنا من مُصافحة الوقائع المُقابلة يدًا بيد بطريقة غير مُتوقعة التي ستكشف بدورها عن الأفكار التي تخص الإله والحياة الأبدية، وفي تلك الأثناء سيكتشف المرء مفاجأة من العيارِ الثقيل تقول إن أسباب ثورته العقلية الحالية كانت في حد ذاتها المصدر الرئيس لأفكار الدين الأساسية، وهنا تحديدًا ستجده يكتشف تلك العلاقة

بين الرمز والواقع، وبين السبب والنتيجة.

إن مسألة الخلط بين الرمز والواقع هي أحد أبرز إشكاليات الممارسة الدينية، المسألة أشبه بأن تنظر إلى الإصبع الذي يُشير إلى الطريق، ثم تلعقه من أجل الشعور بالراحة بدلًا من اتباعه!

علينا أن نعلم أن الأفكار الدينية تصبح عديمة النفع ومُضَلِّلة إذا لم نكن نعرف تلك الوقائع الملموسة التي تُشير إليها، فمثلًا تعد كلمة «ماء» كلمة ذات معنى ومغزى بوصفها وسيلة اتصال بين هؤلاء الذين يعرفون جيدًا ما تعنيه، وينطبق الأمر كذلك على كلمة «الإله».

لا أريد أن أصبح غامضًا بغتةً أو أبدو وكأني أقدم ادعاءات ومزاعم بمعرفة خَفية.

إن هذا الواقع الذي يتوافق مع الإله والحياة الأبدية هو واقع صادق يسمح لنا جميعًا بالرؤية بكل وضوح، لكن حتى يتمكن المرء من ذلك يتعين عليه القيام بعملية تصحيح لمساره العقلي تمامًا كما تتطلب الرؤية الواضحة إجراء عمليات تصحيح للعيون، ومع أن التقيد بفكرة المعتقدات من شأنها أن تعوق اكتشاف هذا الواقع بدلًا من أن تساعد بدورها في التعرف إليه، إن كانت تلك المعتقدات تخص الاعتقاد بوجود الله أو عقيدة الإلحاد، وبناءً عليه ينبغي لنا أن نميز تمامًا بين المعتقدات والإيمان، فقد تبين لاحقًا أن المعتقدات هي تلك المنطقة العقلية المُناقضة للإيمان.

فالمعتقدات هي التي تنشد زراعة بذور أفكار معينة في عقول أولئك الذين يتبعونها مُعتقدين بذلك أنهم يحصلون على الحقيقة التي تتناسب مع أفكارهم وأمنياتهم المُتصورة سلفًا، لكن الإيمان على الجانب الآخر يجعل المرء مُنفتحًا تمامًا لمُصافحة عقل الحقيقة أيًا كانت، فذلك الشعور لا يرتبط أبدًا بالتصورات المُسبَقَة، إنه أقرب إلى الغوص عميقًا في المجهول، فبينما تتشبث بك المعتقدات وتلتصق بك يسمح لك الإيمان بالحرية، وهذا في حد ذاته المذهب الأساسي للعلم، كما أنه جوهر أي دين لا يعتمد على الخداع الذاتي.

يميل معظمنا إلى الاعتقاد بشيءٍ ما بوصفه وسيلة للشعور بالأمن، فنحن نفعل

ذلك حتى نجعل حيواتنا ذات قيمة ومعنى، وشيئًا فَشَيئًا أصبحت مسألة الاعتقاد تلك مجرد محاولة للإمساك بالحياة والاحتفاظ بها أطول وقتٍ ممكن، وما أود قوله إنه لا يمكنك أبدًا فهم الحياة ما دمت تبذل قصارى جهدك من أجل الإمساك بها، فالمسألة أشبَه بأن تتجول في الأرجاء وأنت تضع النهر داخل دلوٍ ما، فإذا حاولت أن تحتجز المياه الجارية في دلو لا يمكنك استيعابها أبدًا، وسوف تصاب بالإحباط على الدوام لأن المياه الموضوعة داخل الدلو لا تجري، وحتى تحصل على مياه جارية عليك أن تتركها تتدفق وتجري دون تَدَخُّل، الأمر ذاته ينطبق على معنى الإله والحياة، فالمرحلة الحالية للفكر الإنساني والتاريخي تتأهب بشدة مُرَحِّبَة بهذا التخلي. لقد استعدت عقولنا أيضًا للقيام بتلك الخطوة تحديدًا مع اللحظة الأولى لانهيار معتقداتنا التي غرسناها من أجل الشعور بالأمان.

هناك وجهة نظر تناقش تلك القضية من منظورٍ مختلف، وتقول إن مسألة اختفاء تلك الحالة من التشبث بالديانات التقليدية التي هي أشبَه بالصخرة القديمة والإيمان بالأشياء المطلقة لن تقينا فقط شر المِحَن والابتلاءات، ولكنها أيضًا ستكون أقرب إلى نعمة بالنسبة إلينا لأنها على الأغلب ستدفعنا إلى مواجهة الواقع كما هو بعقولٍ مُنفتحة، ويمكننا حينها أن نعرف الرب من خلال التحلي بتلك العقلية الانفتاحية، فنحن مثلًا لا يمكننا أن نرى السماء بوضوح إلا من خلال نافذة شفافة، فلن نتمكن من رؤيتها جيدًا إذا نظرنا إليها عبر زجاج طُلي باللونِ الأزرق، لكن الأمر لا يسير على هذا النحو مع الأشخاص «المتدينين» الذين يقاومون كشط الطلاء عن النافذة، أولئك ممَن ينظرون إلى الموقف العلمي بخوفٍ وقلة ثقة، ويخلطون الإيمان بالتشبث بأفكارٍ محددة، فهؤلاء يجهلون قطعًا قوانين الحياة الروحية التي ربما يعثرون عليها في سجلاتهم التقليدية.

بعد القيام بدراسة متأنية لمقارنة الأديان والفلسفة الروحية تَكَشَّفَ أن التخلي عن المعتقدات وكذلك وضع حد لمسألة التشبث بوجود حياة مستقبلية يحيا من أجلها المرء أو أي محاولة للهرب من المحدودية وتجاوز الموت هي مرحلة طبيعية واعتيادية منتظمة في الطريق إلى الروح، وهي تعد حَقًّا المبدأ الرئيس لتلك الحياة الروحية الذي من المفترض أن يكون واضحًا منذ البداية، كما أنه لأمرٍ مُثير للدهشة

حقًا أن تجد تلك الاستعدادية لدى رجال الدين المُتعلمين لتبني أي شيء باستثناء ذاك الموقف التعاوني الذي يخص فلسفة العلم النقدية.

بالطبع هناك معلومة قديمة تقول إن الخلاص يتأتى فقط عبر موت الأنموذج البشري للإله، ولكن ليس من السهل أيضًا رؤية هذا الأنموذج يتمثل ببساطة في شخصية المسيح التاريخية، ولكنه يشتمل بدوره على تلك الصور والأفكار والإيمان بالأشياء المُطلقة التي يتشبث بها عقل الإنسان، هذا هو المعنى الكامل للوصية:

«لا يجب عليكم صناعة التماثيل لأنفسكم، لا تنحنوا أمامها ولا تعبدوها».

حتى يمكننا اكتشاف واقع الحياة المُتمثل في تلك الصورة الأبدية والمُطلقة للإله فإنه يتعين علينا أن نتوقف عن وضع تلك الأفكار في قوالب على هيئة أصنام، فتلك الأوثان ليست فقط مجرد صور تافهة لا جدوى من ورائها تمامًا كما تلك الصورة عن الإله الموجودة في أذهان البعض الذين يتصورون أن الرب رجل عجوز نبيل يجلس في عرشه الذهبي، فكل تلك الأشياء هي معتقداتنا العزيزة المُتصورة سلفًا فحسب التي تحجب رؤيتنا العالم حولنا، وتجعل عقلنا أكثر انغلاقًا، ذلك الاستخدام الشرعي للصور من أجل التعبير عن الحقيقة وليس امتلاكها، ذلك المبدأ الذي تم الاعتراف به في التقاليد الشرقية العظيمة مثل البوذية، والأُفيدانتا والطاوية، لم يكن هذا المبدأ الروحي معروفًا للمسيحيين لأنه كان ضامرًا مُستترًا في القصة بأكملها الخاصة بتعاليم المسيح، فقد شهدت حياته منذ البداية قبولًا تامًا واعتناقًا لعقيدة الشعور بعدم الأمن، وقد قال في هذا الصدد:

«بينما تمتلك الثعالب جحورًا والطيور أعشاشًا لا ينتمي ابن آدم إلى هذا المكان الذي يسند رأسه إليه في نهاية المطاف».

لقد رمى ذلك المبدأ إلى إحاطة المسيح بهالة من القدسية وتقديمه على أنه تجسيد بشري للإله، ومن هنا كان الموضوع الأساسي لقصته «التعبير عن صورة الرب»، وقد شرح المسيح لعددٍ من أتباعه وتلاميذه الذين كانوا يتشبثون بفكرة الإيمان بألوهيته قائلًا:

«إذا سقطت إحدى حبات الذرة على الأرض دون أن تموت فإنها تظل وحيدة، لكن إذا ماتت فهذا بدوره يجعلها تجلب الكثيرِ من الثمار». وفي السياق نفسه حذرهم:

«خير لكم أن أذهب بعيدًا لأنني إذا لم أفعل ذلك، فلن تأتي إليكم الروح القدس».

فهذه الكلمات انطبقت تمامًا على المسيحيين، وتحدثت بكل دقة عن الموقف الراهن لحاضرنا لأننا لم نفهم قط ذلك المعنى الثوري الكامن فيها- تلك الحقيقة المذهلة التي تؤكد أن تلك الأديان التي تدعو إلى ما يُعرَف برؤية الرب قد عثرت على ضالتها عندما تخلت عن تلك الفكرة في بداية المطاف، فعبر قانون الجهد المعكوس تمكنا من اكتشاف اللانهائية والمُطلَق، وذلك ليس فقط عن طريق الهرب من العالم الواقعي المحدود ولكن عن طريق التقبل التام لحدوده وأوجه قصوره، فالأمر قد يبدو مفارقةً، فنحن مثلًا نكتشف أن الحياة ذات معنى ومغزى في تلك اللحظة التي نتأملها دون هدف، كما أننا نتعرف إلى أسرار غموض الكون عندما نقتنع تمامًا بأننا لا نعرف أي شيء على الإطلاق!

إن الشخص المُلحِد أو النسبي أو المادي يفشل في الوصول إلى تلك المرحلة لأنه لا يتبع خطوط أفكاره حتى نهاية الطريق، ربما حينها كان ليحصل على مفاجأة حياته بأسرها، وبناءً على ذلك فسرعان ما تجده يهجر الإيمان ويصبح أكثر انفتاحًا على الواقع، ويخضع لعملية من التصلب العقلي وفقًا لنظريته الخاصة.

إن اكتشاف ألغاز الغموض وأسرار العجائب لا يحتاج إلى معتقدٍ بعينه، إذ إننا نؤمن فقط بما نعرفه قبلًا أو بما باستطاعتنا تخيله، لكن هذا الأمر هنا يتجاوز الخيال، فنحن بحاجة ماسة إلى فتح عيون عقلنا على مصراعيها من أجل استقبال الحقيقة التي سوف تكشف عن نفسها في وقتٍ لاحق.

الألم والوقت

في بعضِ الأحيان يحسد معظمنا الحيوانات، فهي تُعاني وتموت ولكن مع ذلك تنظر تلك الكائنات إلى الأمر بعدّه مأساة أو مشكلة، فحياتهم تبدو أقل تعقيدًا، فهم يتناولون الطعام عندما يشعرون بالجوع، وينامون عندما يداهمهم التعب، كما أن اعتمادهم على غريزتهم الفطرية يجعلهم يستعيضون بها عن التوتر والقلق، الأمر الذي يمكنهم من التحكم في القليل من تجهيزات المستقبل، فكما نرى بأنفسنا أن كل حيوان مُنشَغِل تمامًا فيما يفعله في اللحظة الراهنة، ولا تجده يتساءل يومًا مثلًا إن كانت هذه الحياة ذات معنى أو مستقبل، فالحيوان يجد كامل سعادته في الاستمتاع باللحظة الحياتية الحاضرة دون أن يحصل على أي ضمانات بمستقبلٍ يكتظ بالمباهج والمُتَع التي تنتظره، ولا يعزى ذلك إلى أن الحيوان كائن غير حساس، فمعظم الحيوانات تتمتع بحدة واضحة في البصر والسمع وَالشَّمّ التي تتفوق على قدرات حواسنا البشرية، ومع ذلك ليس هناك أي شك في أن الحيوان لا يستمتع تمامًا بتناول طعامه ونومه بشكلٍ هانئ.

ومع حدة حواسه فإنه يمتلك عقلًا غيرِ مُكْتَرِث عديم الحساسية، ومن ثَم فإنه يعد كائنًا اعتياديًا إذ إنه غير قادر على التفكير وتأمل الأفكار التجريدية، ولديه قصور واضح فيما يتعلق بقدراته الخاصة بالتوقعات والذاكرة.

أضاف العقل البشري الحساس ثراء هائلًا إلى شتى مناحي الحياة، ونتيجةً لذلك فنحن ندفع ثمنًا باهظًا، لأنه كلما ارتفعت تلك الحساسية أصبحنا أكثر عُرضَة للضعفِ والخطر، فالمرء يكون أقل ضعفًا إذا كان أقل حساسية- أن يكون أقرب إلى الحجارة منه إلى الإنسانية، لأن الحساسية الشديدة تتطلب قدرًا عاليًا من النعومة والهشاشة، وحينها يصبح المرء أقل قدرة على الاستمتاع، فمقل العيون وطبلة الأذن وبراعم التذوق والأطراف العصبية تصل إلى قمة ذروتها داخل الأدمغة الحساسة، فهي ليست فقط ناعمة وهشة ولكنها أيضًا قابلة للتلف.

يبدو الأمر وكأنه ما من وسيلة فعالة للحد من تلك الرِقّة لمنع احتمالية التلف السالفة الذكر للأنسجة الحية دون أن تقل حيويتها وحساسيتها، فإذا امتلكنا مُتعًا

هائلة فإننا نختبر بدورنا أيضًا آلامًا عظيمة، فنحن نُصافح السعادة التي نتوق إليها والألم الذي نكرهه لكن من المستحيل أن يتحقق الأمر السابق دون الأخير، فيبدو الأمر حقًا وكأن الشعورين يتبادلان الأدوار طيلة الوقت، فمن أجل الحصول على المزيدِ من السعادة تزداد حساسية المرء التي من الممكن أن تنقلب بدورها إلى الشعور بالألم، فالأمر أشبَه بالاعتماد على نظام غذائي ثابت من الوجبات والأطعمة الدسمة الذي ينتهي بأحد الأمرين؛ إما أن يُدَمِر الشهية، وإما أن يجعل المرء يشعر بالمرض.

الأمر يصل إلى هذا الحد الذي يجعلنا نرى الحياة جيدة والموت شرًا نسبيًا، وكلما كنا قادرين على تبادل مشاعر الحب مع شخصٍ آخر مُستمتعين برفقته أصبح حزننا أعظم عند موته، أو في تلك اللحظة التي ننفصل فيها عنه، وفي تلك الأثناء يقرر وعينا خوض مغامرة في تجربةٍ ما، وحينها نجد أنفسنا ندفع ثمنًا أكبر من أجل الحصول على المعرفة.

من المفهوم أن المرء يجد نفسه في بعض الأحيان يتساءل إن كانت حياته قد بعدت تمامًا عن الاتجاه المقصود، وكثيرًا ما نسأل أنفسنا بنبرة يسكنها الارتياب إن كانت حياتنا تلك تستحق العناء فعلًا، وإن كان من الأفضل أن نصحح مسارها ناشدين السير في اتجاهٍ آخر مُمكن، ثم نتأمل تلك الحالة النسبية من السلام التي تنعم بها الحيوانات وغيرها من المحاولات الغريزية التي حاول الكثيرون السعي وراءها، وهناك أمثلة كثيرة لذلك فقد تعرف تلك المرأة التي عانت كثيرًا جروحًا عاطفية في الحب أو الزواج ثم قررت بغتةً ألا تسمح لأي رجل بالتلاعب بمشاعرها، ثم تقوم إلى الأبد بدور تلك العانس القاسية القلب، والأكثر شيوعًا أيضًا ذلك الولد العاطفي الذي تعلم في المدرسة أن يصبح فتى قاسيًا خَشِن التعامل كذلك الحال بالنسبة إلى هذا البالغ الذي أدى دور الشخص الرجعي محاولًا الدفاع عن نفسه وأفكاره، فهو يرى مثلًا أن كل تلك الثقافات الفكرية والعاطفية هي مجرد أشياء تافهة لا تليق إلا بالنساء، ذلك الأنموذج الذي تنتهي حياته بالانتحار في نهاية المطاف، تلك النهاية المنطقية المتوقعة لرد فعله ذاك.

يمكنني القول إن ذلك النوع من الأشخاص القُساة الشديدي المراس أشبه بالانتحار الجزئي، فثمة شيء ما يموت داخل أرواح مثل هؤلاء الناس، فإذا أردنا فعلًا أن نكون أشخاصًا كاملين على قيد الحياة من المفترض أن نتأهب من أجل التضحية للحصول على المُتَع والمباهج، فدون تلك الرغبة لن يكون هناك نضج أو نمو لكثافة الوعي.

فنحن نتحدث بشكلٍ عام الآن أننا لسنا مستعدين لفعل ذلك وحتى لو فكرنا في الأمر سنجد أن من الغريب الاعتقاد أن باستطاعتنا تنفيذه على أرضِ الواقع، وعلينا أن نعلم أن الطبيعة تعيش في داخلنا لذلك فإن التمرد على الألم يجعلنا نبتعد أميالًا عن استعدادنا للتعامل مع تلك الأمور التي تبدو مستحيلة ودون معنى وسط الظروف الحالية، فالحياة في حد ذاتها ممتلئة بالتناقضات والصراعات.

علينا جميعًا أن نعلم أننا كلما تعطشنا للحصول على مُتعَة ما فإننا نتعطش بدورنا لحالة من فقدان الوعي، تلك الخسارة التي هي أشبَه بالموت، وهذا يعني أننا كلما كافحنا من أجل الشعور بالسعادة فإننا بطريقةٍ أخرى نقتل تلك الأشياء التي نحبها! فهذا حقًا هو السلوك المشترك للإنسانية عبر الأزمنة لأن الجزء الأعظم من النشاط الإنساني صُمم من أجل جعل تلك التجارب والمباهج مُحببة للنفس فقط لأنها تتغير، فالموسيقى مثلًا بهجة ومصدر سعادة فريد لأنها تتكون من التدفق والإيقاع، ولكن في تلك اللحظة التي يُلقى فيها القبض على التدفق وتُسجل نوتة موسيقية ويسبق اللحن أوانه يسقط الإيقاع، الحياة أيضًا كذلك فهي عملية تَدَفُق، ويعد التغيير والموت أجزاءها الأساسية، فأن تعمل على استبعادها يعني أنك تحارب الحياة ذاتها.

ومع ذلك إن تجارب التناوب بين الألم والسعادة هي قلب المشكلة الإنسانية بلا ريب، فإن ما يُبَرر بحثنا الدائم لإيجاد معنى للحياة -يتمثل في سعينا إلى مصافحة الإله أو الحياة الأبدية- ليس رغبتنا المجردة للابتعاد عن تجربة الألم الحالية، ولا يتمثل بدوره أيضًا في إقدامنا على اتخاذ مواقف وتأدية أدوار مُحددة بوصفها وسائل دفاعية دائمة الوجود، فالمشكلة الحقيقية لا تأتي نتيجة حساسية مؤقتة تجاه الألم لكنها تنتج بسبب امتلاكنا قدرات هائلة فيما يخص الذاكرة والبصيرة،

وأعني بذلك باختصار وعينا الخاص بالزمن. بالنسبة إلى الحيوان فإن اللحظة الراهنة كافية جِدًا حتى يشعر بالسعادة ويستمتع بها، ولكن الأمر لا يسير على هذا النحو مع الإنسان، فلا يمكن للحظة الحالية أن تُشبعه، فهو شديد الاهتمام بالحصول على ذكريات وتوقعات مُمتعة وتحديدًا الأخيرة، وفي ظل وجود تلك الضمانات يمكنه أن يتعامل مع الواقع الحاضر الشديد البؤس.

يمكن للمرء أن يشعر بالبؤس في منتصف لذته وسعادته الجسدية دون تلك الضمانات، إليك مثالًا: ذلك الرجل الذي يعرف أنه من المُقَرر أن يُجري عملية جراحية بعد أسبوعين، فمع أنه في الوقت الحالي لا يشعر بأي ألم جسدي، ويمتلك الكثير ليأكله كما أنه مُحاط بعدد كبير من الأصدقاء بالإضافة إلى أن المحبة الإنسانية تغمره طيلة الوقت، ها هو ذا ينجز عمله الذي يُحبه لكنّ قدرته على الاستمتاع قد سُلِبَت منه بسبب ذلك الشعور الدائم بالخوف، فالرجل لا يكترث أبدًا لتلك الحقائق الفورية المُحيطة به، كما أن عقله مُنشَغِل بشيءٍ ما لم يحدث بعد، لم يكن الأمر وكأنه يفكر في المسألة بشكلٍ عملي، لم يكن يتساءل إن كان يتعين عليه أن يخضع لتلك الجراحة أم لا كما أنه لم يكن يعد خططًا من أجل الاعتناء بعائلته وتأمين مستقبلهم إذا مات، لكن تلك القرارات كانت قد اتخذت بالفعل، فقد كان الرجل يفكر في عدم جدوى تلك العملية، ومن ثَم أفسد لحظته الحالية ولم يعد قادرًا على الاستمتاع بها، وكذلك لم يستطع التوصل إلى حل لمشكلته، ولكن ما باليد حيلة، فهذه هي مشكلة البشرية جمعاء إذ إن موضوع الخوف والرهبة ربما لم يعد يتعلق بالمعنى الحرفي بالمستقبل البعيد لكنه مثلًا قد يخص مشكلة إيجار الشهر القادم، أو الشعور بالخوف نتيجة التهديد بشن الحرب، أو الهلع لحدوث كارثة اجتماعية ما، أو القلق حول قدرة المرء على توفير ما يكفي من المال لدعمه عندما يصل إلى أرذل العمر، وقد يرتبط ذلك الشعور بالذُّعرِ أيضًا من لقاء الموت في نهاية المطاف، ومع أن تلك الأمور تُدَمِّر اللحظة الراهنة كلِّيًا فإنها ربما لا تُشَكِّل خطرًا مستقبليًا، فربما تكون مجرد ذكريات من الماضي أو مشاعر قديمة خلفها جرح ما أو جريمة ما، تلك التي تجدها تُقدِم على اغتيال الحاضر وتشعرك بالذنب والأسى.

إن قوة الذكريات والتوقعات بالنسبة إلى معظم البشر تتمثل في أن نظرة الواحد

مِنا لماضيه ومستقبله ليست حقيقية فحسب بل إنها تتجاوز مدى واقعية الوقتِ الحاضر، فنحن بذلك نمنحها سُلطَة أكبر بدورنا، فلا يمكننا أن نعيش الحاضر بسعادة دون أن نصفّي الماضي متأملين المستقبل بنظرة يعلوها الأمل والإشراق.

مما لا شك فيه أن تلك القدرة الهائلة على تذكر ما هو قادم وتوقعه تخلق تسلسلًا زمنيًا منظمًا لعددٍ من اللحظاتِ غير المُترابطة، ذلك الأمر القادر على تطوير الحساسية التي يتمتع بها المرء، وبطريقةٍ ما يتطور العقل البشري، ويمتلك القدرة على الإنجاز مانحًا الإنسان سلطات هائلة استثنائية تُمَكنه من التكيف والبقاء على قيدِ الحياة.

يمكنني القول إننا غير قادرين على تحقيق الاستفادة من ذلك الأمر بأي حالٍ من الأحوال، فتلك الإمكانية بدورها قد دمرت كل مزاياها، وهذا يدفعنا للتساؤل؛ ما نفع استخدامنا تلك القدرة على التذكر والتوقع ما دمنا غير قادرين على عيش اللحظة الراهنة بشكلٍ كامل؟ وما فائدة التخطيط لتناول طعام ما خلال الأسبوع المُقبل ما دمت غير قادر على الاستمتاع بالوجبات لحظة تقديمها؟ فلو كنت مشغولًا جِدًّا بالتخطيط لما أريد تناوله في المستقبل القريب فهذا يعني أنني لن أستمتع بما أتناوله الآن، وهذا بدوره يضع احتمالية استمرارية ذلك المأزق خلال الأسبوع القادم، فإذا كانت السعادة تعتمد اعتمادًا رئيسًا على مراجعة الذكريات والتوقعات السعيدة فهذا يعني أننا لسنا واعين بالكامل بلحظتنا الحاضرة بين أيدينا.

هل تعلم عزيزي القارئ أنك بذلك قد تفوّت تلك الأشياء الجيدة التي كنت تنتظر قدومها في السابق بفارغ الصبر دون أن تعرف؟ فنحن اعتدنا تكوين عادة النظر إلى ما وراءنا وما أمامنا وبناءً على ذلك فإننا لن نتمكن من القبض على اللحظة الحالية التي تُعرَف باسم «الحاضر»، فإذا كان وعينا بالماضي والمستقبل يجعل شعورنا بالحاضر أقل فمن المفترض حينها أن نبدأ على الفور تغيير وجهتنا، وذلك لأن المستقبل يفقد أهميته ومعناه عاجلًا أم آجلًا إذا لم يكن بدوره سيتحول إلى حاضر، فالأمر يصبح حينها أقرب إلى النظر إلى أكتافِ شخصٍ ما بدلًا من مُصافحة وجهة مُباشرةً.

إن هذا النوع من العيش في تلك التوقعاتِ الخيالية والبُعد عن واقعية الوقت الحاضر هو الإشكالية الرئيسة التي يُعانيها رجال الأعمال الذين يقضون حيواتهم بأكملها فقط من أجل جني المزيدِ من المال، فالكثيرون من الأثرياء لا تشغلهم إلا معرفة كيفية الحصول على المال وادخاره، ومع ذلك فهم لا يعرفون شيئًا عن كيفية استخدامه والاستمتاع به.

إنهم يفشلون في عيش حيواتهم، وذلك لأنهم ينفقون أوقاتهم في التأهب لها، وبدلًا من كسب لقمة عيشهم فإنهم يحرصون على جني المزيدِ من الأرباح الهائلة، وحتى عندما يحين الوقت للاسترخاء والراحة قليلًا فإنهم يشعرون بعدم القدرة على فعل ذلك، ونتيجةً لهذا تجد الكثيرين من رجال الأعمال يشعرون بالبؤس والملل عندما يتقاعدون من العمل، ومن ثم تجد بعضهم يحاول العودة مُجددًا فقط حتى يمنع أي شاب من أن يأخذ موقعه الوظيفي.

انطلاقًا من وجهة النظر تلك فإن استخدام ذكريات الماضي وتوقعات المستقبل يجعلنا أقل تكيفًا مع الحياة، فإذا أردنا الاستمتاع باللحظة الحالية يتعين علينا الحصول على ضمانٍ بمستقبل سعيد، فنحن أشبَه بمَن يبكي من أجل الإمساك بالقمر! فلا يوجد أبدًا ما يضمن لنا تحقيق أمرٍ كهذا على الإطلاق.

إن أفضل التوقعات هي ليست أكثر من مجرد احتمالات غير يقينية، فجميعنا سيعاني ويموت، فإذا لم يكن باستطاعتنا العيش دون مستقبل مضمون فهذا يعني
Telegram:@mbooks90
أننا غير قادرين على الحياة في عالمٍ محدود، وعلى هذا لن نتمكن من التكيف معه، فحتى لو وضعنا أفضل الخطط ستقع الحوادث وسنصافح الموت يدًا بيد في نهاية الرحلة، فهذه هي مأساة الإنسانية بأسرها، كلما زاد وعي المرء صار أكثر حساسية، ولا يمكن للواحد مِنا أن يكون حساسًا تجاه الفرح فحسب بل إن ذلك الشعور يمتد بدوره إلى الألم، فمع أن قدرتنا على تذكر الماضي تجعلنا قادرين على التخطيط للمستقبل فإن القدرة على الشعور بالسعادة تقابلها تلك الخاصة بمواجهة الألم والخوف من المجهول، إضافة إلى ذلك فإن حساسيتنا الشديدة تجاه الماضي والمستقبل تجعلنا أقل شعورًا بالحاضر،إذ إنها تجعلنا عاجزين عن مواكبة ظروف

الحياة، ومن ثَم يبدأ صراعنا مع أجسادنا ومع العالم حولنا، وحينها نجد أنفسنا نشعر بأننا غرباء ومهاجرون، وذلك لأن رغباتنا لا تتماشى مع هذا العالم المحدود التي تُظهِر أن طبيعتنا الذاتية لا تنتمي إليه، وكأن قلوبنا لم تُصنَع من أجل الانسجام مع النهائية المحدودة لكنها خُلِقَت من أجل التناغم مع اللانهائية الأبدية.

إن استياء أرواحنا وسخطها يعد في حد ذاته إشارة إلى ألوهيتها وقدسيتها، ولكن هل تلك الحالة من الرغبة والحنين لشيءٍ ما دليل دامغ على أنه موجود فعلًا؟ نحن نعلم أن ذلك ليس من الضروري أن يكون حقيقة المسألة، يعزينا أن نعتقد أننا مواطنون لعالمٍ آخر خلاف هذا الذي نعيش فيه، وبأننا سنعود بعد مدة من المنفى إلى وطننا الحقيقي الذي تتوق إليه أرواحنا.

ماذا لو أننا كنا مواطنين لهذا العالم؟ ماذا لو لم نتمكن قط من إشباع أرواحنا وإرضائها؟ هل سيستمر ذلك الصراع القائم بين المرء وذاته إلى الأبد؟ فهناك حقيقة تقول إننا إذا تعطشنا للشرب من نافورة السعادة فإننا سوف نصبح أكثر اقترابًا من منطقة الألم، فنحن لا نمتلك القدرة الكاملة للسيطرة على المستقبل، وقد يتمثل ثمن معرفتنا تلك في هزيمتنا خلال تلك المعركة.

ما أود قوله في هذا الصَدد هو أن علينا جميعًا أن نتوغل بشكلٍ أكثر عُمقًا متأملين جيدًا الصورة التي تبدو عليها الحياة وكذلك الطبيعة، تلك التي تعيش بين جنباتنا لنرى إن كانت تتناغم معنا أم أنها تحيا حالة من الصراع الذاتي مع نفسها، ينبغي لنا أن ننظر إليها مُتسائلين إن كانت حقًا تنعم بهذا الشعور اللذيذ من الأمان الذي لا يستطيع الأفراد الاستمتاع به أبدًا.

اَلتَّدَفُّق العظيم

إن الأمر أشبَه بكوننا عالقين داخل وعاء من العسل، فالحياة حُلوة المذاق، ومن ثَم فنحن لا نرغب في تركها، ومع ذلك فإننا كلما تورطنا فيها نصبح أكثر حصارًا وإحباطًا، فنحن نحبها ونكرهها في آنٍ واحد.

مع أننا أيضًا نقع في حب الناس لكن الشعور بالقلق يستحوذ علينا، ونظل على هذة الحياة طيلة الوقت خشية أن نصبح أسرى لتعذيبهم، ولنا أن نقول أن الصراع لا يقع فقط بين ذواتنا وهذا الكون المُحيط لكنه يقع أيضًا بين أنفسنا وأنفسنا، فتلك الطبيعة المُستعصية تعيش في داخلنا وتُحاصرنا.

تلك الحياة المُزعجة التي كانت يومًا مُحَببَة إلى أنفسنا كما أنها تغوص عميقًا في داخلنا مُكَونةً مزيجًا من السعادة والألم والنعيم واللعنات، تلك التي تمتطي أجسادنا فتجعلنا نشعر بالانقسام إلى جزأين، فمن ناحية ما هناك ما يُعرَف بالأنا التي تجعلنا نشعر بالحيرة والافتتان، ذاك المخلوق المُتعجرف الذي سرعان ما يسقط في الفخ، ومن ناحية أخرى هناك ما نطلق عليه اسم «الذات» وهو جزء من الطبيعة كما أنه أشبه بطريقٍ مُضَلل يقودنا إلى المزيد من مظاهر الجمال المُزيف والقيود المُحبطة، فطيلة الوقت نجد الأنا تتوهم نفسها شخصًا عَقْلَانِيًا وتنتقد على الدوام الذات نظرًا إلى تحلي الأولى ببعض العناد الذي قد يورط الثانية في المتاعب كما أنها توبخها نظرًا إلى كونها عرضَة للآلام والأمراض ونظرًا إلى امتلاكها أجهزة تبلى وشهية لا تعرف الشبع.

ربما يعد الشيء الأكثر إثارة فيما يتعلق بالأنا وطبيعتها الخاصة وعلاقتها بالكون يتمثل في أنها لا تهدأ أبدًا ولا تلزم مكانها، فهي أشبه بامرأة جميلة جِدًا يصعب على أحدهم الإيقاع بها، فسحرها الأخاذ تحديدًا يكمن في غرورها وغطرستها تلك، فالأمر هنا أيضًا يشبه تلك الحالة من اَلتَّحَوُّل وَالتَّلَف التي يمر بها الكون والتي تعد جزءًا من حيويته وتألقه، وربما لهذا السبب يتألق الشعراء كلما تحدثوا عن مسألة التغيير في أعمالهم الأدبية، فهم يُناقشون تلك المرحلة الانتقالية التي تشهدها حياة البشرية، ومن هنا على وجه التحديد نجد أن مواطن جمال هذا النوع من الشعر يتمثل في

كونه أكثر من مجرد حنين إلى الماضي يترك بدوره غصة في الحلق.

تلك الفكرة الخاصة بالذوبان لم تستعر روعتها ببساطة من الأشياء اَلْمُتَحَلِّلَة، فالحقيقة على الأحرى تتمثل في أن الصور الجميلة في حد ذاتها تأتي إلى الحياة في إطارٍ من التلاشي، فالشاعر الناجح مثلًا يستطيع أن يسلب منها صلابتها وسكونها ويحولها إلى جمالٍ ما قد نجده مُتَمثلًا في أحد الإبداعاتِ الفنية أو التماثيل أو التصاميم المعمارية أو إلى عالم من الموسيقى الذي سرعان ما يتلاشى، فتلك الأبراج القديمة والقصور والمعابد لم تصبح نابضة بالحياة إلا في تلك اللحظة التي تخلصت فيها من كل تلك الحياة المُفرِطَة بداخلها، فأن تمر مرور الكرام يعني أن تعيش وأن تبقى وتستمر، ويقصد به أنك تقف متأهبًا على حافة الموت، وهذا يُذكرنا بتلك المقولة «إذا سقطت حبة الذرة على الأرض دون أن تموت فإنها تبقى وحيدة، لكن إذا ماتت فإنها تجلب المزيد من الثمار».

تمكن الشعراء من معرفة تلك الحقيقة وقد أطلقوا عليها أسماء عدة منها التغيير، والحركة، والشعور بعدمِ الأمان وغيرها من الأسماء التي تصف الشيء نفسه، ويمكننا القول بناءً على ذلك إن الحقيقة هي الجمال هنا وفي كل مكان، فالحركة والإيقاع هي جوهر كل الأشياء المُحَببَة للنفس، ومع أن الصورة النهائية للأنموذج أو العمل الفني تبقى ساكنة في مجالات النحت والعمارة والفن، فإن العين تجد سعادتها في العثور على نقصٍ مُحَدد في درجة التماثل كما يبدو الأمر أيضًا عند تأمل الأحجار المتجمدة التي تبدو وكأنها في مُنتَصف حركتها، ذاك التناقض الغريب والمُفارقَة غير الطبيعية التي تُقاوِم خلالها الأنا ذلك التغيير الذي تشهده الذات، ولكن ماذا عن الكون المُحيط؟ فالتغيير ليس مجرد قوة مُدَمِّرَة كما نظن، فكل شكل في حد ذاته هو أنموذج من الحركة كما أن كل كائن حي كالنهر الذي إن لم يتدفق خَارِجِيًا لن يقدر على اَلتَّدَفُّق دَاخِلِيًا.

فالحياة والموت ليست قوى مُتعارضة ولكنها طرائق مختلفة للنظر إلى القوة نفسها لأن حركة التغيير تؤدي دور البناء والتدمير معًا، فحياة الجسد البشري ذاتها تعتمد على مجموعة من الحركات التي تشمل الدورة الدموية وعمليات الهضم

والتنفس، وأن تُقاوِم التغيير يعني أن تبذل قصارى جهدك من أجل اَلتَّشبُّث بالحياة، فالأمر في حد ذاته أشبَه بحَبس أنفاسك. فإذا أردت أن تقتل نفسك عليك أن تنظر إلى ذاتك على هذا النحو المُنقسِم الذي يجعلك تضع حَدًّا فاصلًا بين اَلنَّفس والأنا، وهذه إشارة ضمنية تُوحي بنسيان الواحد مِنا أن الوعي يحيا اعتمادًا على قدرته الكاملة على الحركة، إنه جزء لا يتجزأ من تيار التغيير الذي يقوم به الجسد والعالم الطبيعي بأسره.

فإذا تأملت الأمر بعناية فإنك ستجد ذلك الوعي الذي نطلق عليه اسم الأنا تيارًا هائلًا من الخبرات والمشاعر والأحاسيس التي تمضي في إطارٍ دائم من الحركة، ولكن لأن هذه الخبرات تشتمل على ذكريات فقد أصبح لدينا انطباع أن «الأنا» ما هي إلا شيء صلب وساكن تمامًا كأنها جهاز لِوَخي تسجل الحياة بموجبه، ومع ذلك فإن هذا الجهاز يتحرك مع إصبع الكتابة كما يتدفق النهر جنبًا إلى جنب مع الموجات، وبناءً عليه فإن تلك الذاكرة أشبَه بسجلٍّ مكتوب فوق الماء، ذاك الذي لا يشتمل على شخصياتٍ منقوشة محفورة، لكنه يتمثل في مجموعة من الموجات التي تُحرِّكها موجات أخرى والتي نُطلِق عليها اسم «الوقائع والأحاسيس».

يمكننا القول إن ذلك الاختلاف بين الأنا والذات ما هو إلا نتيجة هائلة من حالة الوهم التي تشهدها الذاكرة، ففي الحقيقة تمتلك الأنا طبيعة الذات نفسها، وهذا جزء أصيل من كياننا بأكمله تمامًا كما يعدّ الرأس جزءًا من الجسد، ولكن إذا لم يتحقق ذلك التناغُم تعيش كلٌّ من الأنا والذات حالة واضحة من الاغتراب بعضهما مع بعض، فالأنا لا تفهم أننا في ضوء الاستجابة لتيار التغيير نحاول أن نتفهم العالم ونشرع نحاول محاولات عدة من أجل إصلاحه، وأننا في تلك الأثناء سندخل في حرب مُشتعلة بين الوعي والطبيعة، وبين الرغبة في الاستمرارية وجوهر عملية التغير الدائمة، تلك الحرب التي ستكون نتيجتها غير مُجدية ومُحبِطَة لا محالة إذ إن الصراع الناشئ يدور بين طرفين ينتميان إلى كيانٍ واحد، ومن ثَم فإنه يقود الأفكار والأفعال إلى حلقاتٍ مفرغة بوتيرة أكثر سرعة، فعندما نفشل في رؤية ذلك التغيير يُبارك حياتنا فإننا نُنَصّب أنفسنا أعداء حقيقيين في مواجهة ذواتنا لنصبح بذلك كما أفعى الأوروبورس المُضَلّة، تلك التي تبذل قصارى جهدها مُحاولةً أكل ذيلها

والتي تعد رمزًا دائمًا للحلقات المفرغة والمحاولات المُستميتة من أجل أن يهزم أحد الأطراف الآخر ويظل الإنسان أسيرًا أزليًا لتلك الحالة من المُعاناة.

علينا أن نعرف جيدًا أن مسألة «الإصلاح» لن تأتي دون مُصافحة التغيير، ونحن لن نتغير إلا إذا انغمسنا في ذلك الشعور وتحركنا معه، بإيجاز لن يتأتى ذلك دون الانضمام إلى تلك الرقصة الشجية.

فقد اعتمدت الأديان كما يعرف معظمنا على محاولة إعطاء مفهوم مُحدد للحياة من خلال تأملها بشكلٍ ثابِت وربط ذلك العالم العابِر بمفهوم الإله غير المُتغير كما أنها نظرت إلى أهداف الحياة وأغراضها بعدّها تتعلق بما يُعرَف بالحياةِ الأبدية، تلك التي تذوب فيها الكيانات الفرديةِ لتصبح جميعها كيانًا واحدًا يرتبط بالطبيعة الإلهية غير المُتغيرة، يظهر ذلك بدوره جليًا في عددٍ من النصوص الدينية مثل:

«امنَحه السلام الأبدي أيها الرب ودَع نورك يفيض عليه».

لا بد أن نشير إلى أننا نُطَبق كذلك النظرية نفسها في محاولة فهم الأحداث التاريخية الشاقة الحَرِجَة واستيعابها، ونخضع أيضًا تفسيراتها لقوانين الإله الثابتة:

«قوانينه وأحكامه العادلة التي تستمر إلى الأبد».

لقد خلقنا لأنفسنا مشكلة هائلة نظرًا إلى اعترافنا بمعقولية ذلك الثابت ومنطقيته الذي لا يخضع إلى أي تغيير، فنحن نعتقد استحالة فهم الحياة ما دُمنا غير قادرين على وضع ذلك اَلتَّدَفُّق الهائل العظيم داخل إطارات من القوالب الجامدة والأشكال الصلبة التي لا تعرف المرونة، فحتى تصبح الحياة مُجدية ذات معنى بالنسبة إلينا نحرص كل الحرص على تأملها في ضوء عدد من الأفكار والقوانين الثابتة، وهذا بدوره يجب أن يتوافق مع حقائق أبدية غير مُتغيرة تكمن خلف المشهد المُتَحول.

إذا كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تُمَكننا من فَهم الحياة فإننا قد ورطنا أنفسنا في إحدى تلك المهمات المستحيلة المُتمثلة في وضع كل هذا اَلتَّدَفُّق الكوني داخل قوالب ثابتة.

يمكنني القول في هذا اَلصَّدَد إن علينا أولًا، قبل أن نتساءل إن كانت هناك طريقة

أفضل لفهم كوننا الواسع، أن نرى بوضوح ذلك الخلط الشائع بين مفهوم «المعنى» و«الثبات»، يجب علينا أولًا أن نعرف كيف نشأت تلك الحالة من الارتباك والبَلبَلَة.

إن الأسباب الجذرية لتلك الصعوبات قد نشأت نتيجة تطور قوة التفكير على نحوٍ سريعٍ جِدًا، ونتيجةً مُباشِرة لذلك قد نسي ذلك التقدم الأُحادي الجانب تلك العلاقة السليمة المُناسبة بين الأفكار والأحداث، والكلمات والأشياء، وواصل التفكير الواعي المُضي قُدُمًا وبدأ خلق عالمه الخاص، ولكن في تلك اللحظة التي وقع فيها الصراع مع العالم الحقيقي بدأنا نشعر بخلافٍ عميق بين «الأنا» التي تُمَثّل اَلمُفَكّر الواعي وبين الطبيعة، ولم يكن ذلك التطور البشري الأُحادي الجانب بأمرٍ غريب على المُثقفين والمُفكرين الذين كانوا أمثلةً صارخةً على هذا الاتجاه الذي أثّر في حضارتنا بأسرها.

لقد نسينا أن أفكارنا وكلماتنا ما هي إلا مجرد تقاليد وأعراف واتفاقيات بيننا، فمن المدمر حقًّا أن نأخذها على مَحمَل الجد، فالعُرف أو التقليد ما هو إلا مجرد اعتبار اجتماعي، فمثلًا المال قد تخلص من متاعب فكرة المقايضة على مدار الزمن، فمن السخيف حقًّا أن نأخذه على محمل الجد وأن نخلط بينه وبين الثروة الحقيقية، فلا يُمكنك أن تأكله أو أن ترتديه عندما تكون بحاجة إلى ذلك، فالمال ما هو إلا أقل أو أكثر استاتيكية بالنسبة إلى الذهب والفضة وأوراق الصحف أو بالنسبة إلى حسابٍ بنكي يُمكنه الحفاظ على مكانه مدة طويلة من الزمن، لكن الثروة الحقيقية المُتمثلة في الطعام على سبيل المثال قابلة للتلف، وعلى هذا فإن مجتمعًا ما إذا استحوذ على كل الذهب الموجود في العالم لن يتمكن بدوره من زراعة المحاصيل، ونتيجةً لذلك سيتضور أفراده جوعًا، وهذا المثال يقودنا إلى تلك الحقيقة القائلة إن الأفكار والمعتقدات والكلمات هي «عملات» الأشياء الحقيقية، فمع أنها تمثلها لا تتوافق معها في طرائق كثيرة، وكما هي الحال بالنسبة إلى المال والثروة كذلك بالنسبة إلى المعتقدات والأشياء وأيضًا تنطبق المسألة على الأفكار والكلمات، فهناك علاقة ثابتة نوعًا ما في حين أن الأشياء الحقيقية تتغير، فمن الأسهل بالطبع أن تقول «أنا» بدلًا من أن تُشير إلى جسدك، كما أنه من الأيسر أن تقول «أريد» بدلًا من الإشارة إلى ذاك الشعور الغامض المبهم المُنبَعِث من فمك أو معدتك، كما أن الأكثر مُلاءمة أن تقول

«ماء» بدلًا من أن تقود صديقك إلى إحدى الآبار ثم تشرع تؤدي عددًا من الإيماءات الموحية بذلك، ومن المُريح أيضًا أن تُوافِق بدورك على استخدام الكلمات نفسها لوصف الأشياء نفسها وأن تحافظ عليها دون أن تتغير مع أن الأشياء التي نُشير إليها في الأساس في حالة حركة مُستمرة.

في بداية المطاف، كانت قوة الكلمات سحرية وقد حدثت بالفعل العديد من المعجزات بفضل استخدام ذلك التعبير اللفظي الذي خلصنا تمامًا من ضوضاء لغة الإشارة وأراحنا من ذلك اَلصَّخَب الناجِم عن استدعاء صديقٍ ما من أجل مُناداته باسمه، فما من عجب أن نقول إن الأسماء حينها كانت أشبَه بتجلياتٍ خارقة غير طبيعية، وقد اعتاد البشر تعريف أنفسهم بتلك الأسماء المُتناغمة مع أرواحهم التي كانوا يستخدمونها من أجل استدعاء قوى روحانية.

يمكننا القول إن قوة الكلمات قد واصلت المضي قدمًا داخل عقل المرء بأكثر من طريقة، وقد استخدمت كلمة التعريف لتوحي بالمعنى نفسه الذي ترمي إليه كلمة الفهم، والأكثر أهمية من ذلك أن تلك الأمور كافة مَكَّنَت الإنسان من تعريف ذاته كما أنها ساعدته على وَسم جزء مُحدد من خبرته الذي سمّاه أنا! ربما يكون هذا أحد المعاني التي أشارت إليه المعتقدات القديمة؛ بأن الاسم هو الروح، فإن تقم بعملية التعريف تلك يتمثل في أن تقوم بعملية العزل، وهذا بدوره يعني فصل بعض تلك الأشكال المُعقدة عن تيار الحياة، فعندها يقول الإنسان «هذا أنا» بعدّه وسيلة لتعريف ذاته، ففي تلك اللحظة التي يستحوذ فيها الواحد مِنا على اسم يشعر أنه بات أخيرًا يمتلك هوية، ومن هنا وبفضل تلك الكلمة يستشعر استقلاليته وثباته في مواجهة العالم الحقيقي المائع، ذلك الشعور الذي يخلق في حد ذاته صراعًا بين الإنسان والطبيعة، ثم تبدأ اللغة والمعتقدات في التعامل مع هذا النزاع.

لقد أمكَن تطبيق ذلك السّحر الأخاذ المُصاحِب لاستدعاء أحدهم عن طريق تسمية الكون بأسره، فقد استطعنا تحديد القوى الكونية وتعريفها وإضفاء الطابع الشخصي على كلٍّ منها كما أننا احتكمنا إليها في الأساطير والأديان، وباتت لدينا القدرة على فهم العوامل الطبيعية وذلك لأننا أدركنا كيفية التعبير عن العديد من العمليات

الطبيعية الاعتيادية، مثل دوران النجوم، وتعاقُب الفصول، وصياغتها في هيئة كلمات وتمكننا من إسنادها وإرجاعها إلى الرب أو الآلهة التي تُمَثِّل الكلمة الأبدية الخالدة.

لقد استطاع العلم في وقتٍ لاحق أن يوظف العملية ذاتها من خلال دراسة الجوانب الكونية المُنتَظمة كافة، وتمكن من وضع التصنيفات وإطلاق المُسميات وحاول استغلالها بطريقة أكثر إعجازية، ولكن لما كانت طبيعة الكلمات والمعتقدات ثابتة مُحَددة، فإنه يتعذر وصف أهم سمات الحياة وأبرزها -تلك المُتمثلة في حركتها وانسيابيتها- تمامًا كما هي الحال مع المال كونه غير قابل للتلف والصلاحية كما الطعام كذلك الأمر مع الكلمات والمعتقدات فهي لا تمثل حيوية الحياة، فالعلاقة بين المعتقد والحركة أشبَه بالفارق بين إنسان حقيقي يركض وأحد أفلام الحركة السينمائية التي تقدم الركض بوصفه سلسلة من اللقطاتِ والصور الثابتة.

بين الحين والآخر نجد أنفسنا نلجأ بدورنا إلى تلك الاتفاقية التي وضعناها بيننا والتي تشتمل على مجموعة من اللقطاتِ الثابتة المُحَددة، والتي نستعين بها كلما رغبنا في وصف أي جسم متحرك، فالأمر أشبَه بالقطار الذي يتوقف في أوقاتٍ مُحَددة من أجل الذهاب إلى أماكن معينة، لكن هذا في حد ذاته غير حقيقي! فباستطاعتك أن تلحظ ذلك القطار عندما يُطلِق صافرة «الآن» مع أن الإنسان يستغرق الكثير من الوقت لكي ينتبه إلى وقته الحاضر الذي يتمثل في لحظة قصيرة تُباغته والقطار يستمر في حركته، ويمكنك القول إنه يتوقف فِعْلِيًا في محطته النهائية في لحظة ما من أجل غرضٍ ما، وفي تلك الأثناء تمر عدد من اللحظات المُتناهية الصِّغَر الثابتة التي تعد في حقيقة الأمر نقاطًا مُتَخَيَّلَة تسكن إحدى النظريات الرياضية بدلًا من العالم الحقيقي.

الأمر الأكثر مُلائمة بالنسبة إلى الحسابات العلمية هو التفكير في تلك الحركة بعدّها سلسلة من الهزات أو الصور الثابتة الصغيرة لكن تلك الحالة من الخَلط والالتباس قد نشأت عندما وُصف العالم وقيس بناءً على تلك الاتفاقيات المُبرَمَة بيننا التي عُرِّفت وحُددت بناءً على خبرات البشر.

فإذا لم تتحرك تلك السلسلة من الصور الثابتة أمام أعيننا بسرعة فإنها لن تقدر بدورها على نقل حيوية الحركة وجمالها، وحينها يتغاضى التعريف وكذلك الوصف عن الإشارة إلى أهم الأشياء على الإطلاق، فمن خلال اعتمادنا فقط على الأغراض الحسابية واللغة والمنطق تظهر المزيد من السخافات التي تجعلنا نظن أنه من خلال اتباعنا لذلك النوع من اللغة أو من خلال احتكامنا إلى هذا النوع من المنطق الذي نُفَكِّر به يمكننا وضع تعريف للعالم المادي وتفسيره.

إن جزءًا كبيرًا من إحباط المرء يرجع إلى اعتياده تَوَقُّع العثور على تفسيرات تعجز اللغة والمنطق عن تقديمها، فأن تريد الحصول على حياة «مفهومة» فهذا يعني أنك تريد شيئًا آخر غيرها، ربما يكون هذا الأمر أشبه بتفضيلك رؤية مشهد الركض من خلال عين أحد أفلام الصور المُتحركة بدلًا من رؤية شخص حقيقي يركض على أرضِ الواقع، وحينها يشعر المرء أن الحياة فقدت مغزاها ومعناها ما دامت الأنا لم تسقط في غرامها الميئوس منه على هذا النحو.

إن الكلمات وأدوات القياس لا تمنحنا الحياة لكنها ترمز إليها، وبناءً عليه فإن التفسيرات الكونية كافة تعتمد على الصياغة اللغوية الدائرية كما أنها تترك الأشياء الرئيسة البارزة دون شرح أو تعريف، فالقاموس في حد ذاته دائري فهو يعرّف بعض الكلمات في ضوء كلماتٍ أخرى وطبقًا لدلالتها الخاصة كما أنه يقترب جِدًّا من الحياة إذ إن كل كلمة تكشف لنا عن صورةٍ ما مع ملاحظة أن كل صور القواميس مُرفَقة مع الأسماء بدلًا من الأفعال، ونجد أن الرسم التوضيحي للفعل يتكون من سلسلة من اللقطات الثابتة كما القصص المصورة، ويرجع ذلك إلى أن الكلمات والصور الثابتة لا يمكنها تعريف حركةٍ ما وتفسيرها مع أن الأسماء هي تلك الأعراف التي اتفقنا عليها بيننا، فلا يمكنك تحديد شيء حي حقيقي أو تعريفه عن طريق ربطه بذلك الصخب والضجيج الذي صنعه الإنسان بدوره، فعلى سبيل المثال عندما نقول: هذا إنسان مُشيرين بإصبعنا نحو أحدهم فنحن لا نعرف أن ما نُشير إليه ليس إنسانًا على وجه الدقة، فإذا أردنا أن نتحدث بطريقة أكثر وضوحًا علينا أن نقول إن هذا الاسم الذي اتفقنا على استخدامه هو أحد تلك الرموز الذي صنعها صَخَب المرء، فما لا نعرفه حَقًّا في هذا السياق هو أنه لا يمكننا تعريفه بأي طريقة ثابتة، وبمعنى آخر فإننا

نحكم على ذلك بناءً على تجربتنا الفورية، ويمكننا القول إن عملية التدفق تلك لا تعرف بداية أو نهاية قابلة للتحديد، تلك الاتفاقية وحدها هي التي تُقنعني ببساطة أن جسدي مُحاط بذلك الجلد الذي يجعله أسير المكان ويحاصره الموت والولادة من ناحية أخرى ليجعلاه أسير الزمن.

يدفعنا هذا إلى السؤال: أين أبدأ وأنتهي فيما يتعلق بالفضاءاتِ والأمكنة؟ فأنا ذلك المخلوق الذي لديه صِلَة بالشمسِ والهواء التي تعد بدورها أحد الأجزاء الرئيسة لوجودي، كما أنها الأكثر قُربًا إلى قلبي، فأنا ذلك النمط أو الأنموذج الدائري الذي قد بدأ حركته منذ أعمارٍ طويلة تسبق تلك العُزلَة التقليدية الشائعة المعروفة بلحظة الميلاد كما أنها تستمر مددًا طويلة بعد ذلك الحدث المعروف بالموت، فالكلمات والأعراف وحدها هي التي تعزلنا عن كل هذا الشيء الهائل غير المُحدد الذي يُمَثّل كل شيء.

لطالما تعاملنا مع تلك الكلمات المفيدة كونها اتفاقيات بيننا كما أننا استخدمناها كما الإشارات الوهمية لخطوط الطول ودوائر العرض المُستَمدة من الخرائط وغير الموجودة فِعليًا على وجه الكرة الأرضية.

لقد سحرتنا الكلمات في واقع الأمر، فنحن نخلط بينها وبين العالم الحقيقي وبناءً عليه فإننا نحاول أن نحيا في هذا العالم وكأنه عالم من الكلمات! وفي تلك اللحظة التي نجد فيها تلك الكلمات غير متوافقة معه يصيبنا الاستياء والذهول، فكلما حاولنا أن نعيش في عالمٍ من الكلمات شعرنا بدورنا بالعزلة والوحدة، واستُبدل بالجزء الأكبر من مرح الأشياء وحيويتها القليل من اليقين والأمان، وعلى الجانب الآخر كلما أُجبِرنا على الاعتراف بأننا نعيش في العالم الحقيقي أصبحنا أكثر جهلًا وشكًا وأقل شعورًا بالأمان حيال كل شيء، لكن ثمة عقلانية لا تَتحَقَّق إلا بإدراك الفارق بين العالمين.

لقد أُسيء فَهم نطاق العلم وغرضه على نحوٍ مُحزِن حَقًّا لأن الكون الذي يصفه الأخير خُلط بالكون الذي يعيش فيه الإنسان، فالعلم يتحدث بدوره عن رمز الكون الحقيقي، ذاك الرمز الذي يُشبِه المال من حيث الاستخدام إلى حدٍّ كبير، إنه يعد

بمنزلة مُوَفِّر مُريح للوقت يستخدم في اتخاذ الترتيبات العملية، ولكن عندما خُلط بين المال والثروة والواقع والعلم أصبح الرمز في حد ذاته عبئًا، وكذلك الحال بالنسبة إلى صورة الكون التي وُصفت في الدين العقائدي الشكلي والتي تتمثل في أنه ليس أكثر من رمز للعالم الحقيقي وصيغت بالاعتماد على فوارق تقليدية ولفظية.

أن نعزل هذا الشخص عن بقية الكون يعني ببساطة أننا نقوم بعملية فَصل تقليدي، وأن نرغب في جعل ذلك الشخص خالدًا يعني أننا نود أن نجعل الكلمات واقعه، وهذا بدوره يجعلنا نُصِر على استمرارية تلك الاتفاقية المُبرَمَة بيننا إلى الأبد، فنحن نتوق إلى استمرارية شيء ما لم يكن موجودًا قط، فلقد دمر العلم الرمز الديني للعالم لأنه عندما يُخلط بين الرموز والواقع فإن الأساليب المختلفة لترميز هذا الواقع تبدو مُتناقضة.

إن طريقة ترميز الواقع التي اعتمدها المنهج العلمي أكثر ملاءمة للأغراض النفعية من تلك الطريقة التي استخدمها المنهج الديني، ولكن هذا في الوقت نفسه لم يكشف أنها تمتلك المزيد من الحقائق، فهل من الأصح تصنيف الأرانب طبقًا للحومها، أم أن ذلك يكون بالنظر إلى فرائها؟ فالأمر برمته يعتمد على ما نرغب في فعله معهم وما نحتاج إليه.

إن ذلك الصدام الناشئ بين العلم والدين لم يُظهِر أن الدين مُزَيَّف وأن العلم حقيقي لكنه كشف أن كل أنظمة التعريف مرتبطة بأغراضٍ متنوعة، وأنه ما من واحدة منها استطاعت حَقًّا أن تُدرِك الواقع إدراكًا كاملًا، ولأن الدين أُسيء استخدامه بوصفه وسيلة لفهم لغز الحياة وسِر غموضها وإدراكه، فقد تطلب ذلك وجود قَدر معين من «الزيف»، لكننا فقدنا معنى الحياة الحقيقي وبهجتها في خضم تلك العملية لطرح ذلك المنظور أو ذاك، وحينها أصبحت كل تعريفات الكون المتنوعة تمتلك دوافع خفية مُستَتِرَة، وباتت جميعها تهتم بالمستقبل بدلًا من اهتمامها بالوقتِ الحاضر.

لقد أراد الدين أن يؤكد وجود مستقبل بعد الموت، ومن ناحيته أراد العلم أن يُشَدِد على أن المستقبل يستمر فقط حتى لحظة الوفاة وبناءً عليه فقد كرس مساعيه من

أجل إرجاء الموت وتأجيله، ولكن الحديث عن الغد وخططه يفقد قيمته تمامًا إذا لم نكن على تواصل كامل مع الواقع الحالي، إذ لا يستطيع المرء أن يعيش إلا في الزمنِ الراهن، فما من واقع آخر سوى تلك اللحظة فحتى لو عاش المرء أعمارًا طويلة فإنه يفقد النقطة الجوهرية الرئيسة إذا عاش من أجل المستقبل السرمدي.

إن كل ما يهم هو ذلك الواقع الفِعلي الحالي، تلك اللحظة المتحركة الآنية التي تتملص من كل التعريفات والأوصاف، هنا تحديدًا يكمن غموض العالم الحقيقي الذي لا يمكن للكلماتِ والأفكار تحديده، فالعيش دائمًا من أجل المستقبل يجعلنا بمنأى عن مصدر الحياة ومركزها، ونتيجةً مُباشِرَة لذلك تفقد الأسماء سِحرها، وكذلك يصبح التفكير مجرد انهيارِ مؤقت.

لقد جعلتنا معجزات التكنولوجيا التقنية نحيا في عالمٍ محموم مهووس بالعملِ على مدارِ الساعة، وهذا أنتج انتهاك بيولوجيا الإنسان وجعله غير قادر على فعل أي شيء سوى مُلاحقة المستقبل بوتيرةٍ أسرع وأسرع، لم يتمكن من التفكير المتأني المدروس في تلك الأثناء من السيطرة على الطفرة المُتزايدة التي يختبرها ذلك الوحش الذي يعيش في داخل الإنسان والذي يعد أكثر وحشية من أي حيوان بري مُفترِس إذ إنه لا يكترث إلا لمساعيه الوهمية.

يمكننا القول إن تلك الطريقة الآلية في التفكير التي تعتمد على التبويب والتصنيف قد جعلت الإنسان بمنأى عن تلك القوى الهائلة التي يتمتع بها حدسه الفِطري المُسيطر على جسده، وجعله هذا يشعر بالانفصالِ التام عن الكون وحينها تشعر ذاته بالعُزلَة، وبناءً عليه فعندما ذابت كل نظريات الفلسفة داخل إناء النسبية واستطعنا أن نُكَون صورة ثابتة للكون بدأت الأنا تشعر بحالة من الهلع وعدم الأمان لاكتشافها أن العالم بأسره ما هو إلا صورة مُتناقضة، وبالطبع لم يكن هناك جديد فيما يتعلق بتلك المعضلة التي تخص اكتشاف كلمات وأفكار جديدة بمقدورها حل لغز الحياة الأبدي.

علينا القول أيضًا إن العقل المحدود غير قادر على استيعاب فكرة الإله وفهمها، كما أن الطرافة الوحيدة هنا هو أن تلك المُعضلة باتت اجتماعية الآن بدلًا من كونها

مجرد مشكلة فردية، فقد تم التعبير عنها على نطاقٍ واسع ولم تعد قاصرة على قِلَة بعينهم، أضِف إلى ذلك أن التقاليد الروحية نفسها كافة قد أقرت أنه لا يمكن للمرء بلوغ هدفه إلا بعد أمرين، يتمثل الأول في تخليه عن إحساسه بالعُزلَة والأمر الثاني هو مواجهة حقيقة جهله بمسألة تعريف المُطلَق.

لقد أقرت تلك الأعراف والتقاليد بضرورة تجاوز تلك النقطة حتى يمكن لأعيننا رؤية الإله، ذلك المشهد الذي تعجز الكلمات عن وصفه يختلف بدوره تمامًا عن النظر إلى رجل يتوهج إشراقًا يجلس على عرشه الذهبي، أو عن مُصافحة ذلك الوميض الساطِع المتألق بقوة فإنها تُشير إلى أن تلك الرؤية هي أشبَه باستعادة شيء ما كنا نملكه في الماضي وفقدناه لأننا لم نُقَدره حق تقدير، فتلك الرؤية هي إدراك غير واضح لشيءٍ غير مُحَدد نُطلِق عليه اسم الحياة، أو الواقع الراهِن، أو التيار العظيم، أو الحاضر الأزلي.

في تلك اللحظة التي يتخلى فيها الواحد مِنا عن ذلك الشعور بالانفصال والعُزلَة يُمكنه فقط أن يسمي لحظته الآنية ويحددها، وحينها وبدلًا من أن يبحث عن الإله في صورٍ وهمية سينظر إلى الإنسان والشجرة وسوف يتأمل بدوره اللون الأخضر والأسود والأحمر، وسيشعر بتلك الأشياء الخشنة والناعمة، وسيلحظ تلك القصيرة والطويلة، وسيفكر في أمر الذرة والكون، فباستطاعة المرء حينها أن يتفق بسهولة مع ذلك العالم اللاهوتي الذي يستنكر مسألة وحدة الوجود، وأن يدرك أيضًا أن تلك الكيانات المُستقلة الثابتة لا تُمثل صورة الإله، فإذا طلبت مني مثلًا أن أُريك صورة الرب سأشير بدوري ناحية الشمس أو الشجرة أو الدودة لكنك إذا قلت لي هل تقصد بذلك أن الإله هو الشمس أو الشجرة أو الدودة وغيرها من الأشياء؟ سأقول لك حينها إنك أضعت المعنى الحقيقي بالكامل.

يُمكنني إعلامك عزيزي القارئ أنه خلال الصفحات القادمة من هذا الكتاب ستعرف أن تلك الأفكار الميتافيزيقية للعالم الأبدي غير المُتَغير تحمل معنى آخر، فهي لا تتطلب بالضرورة وضع نظرة ثابتة للواقع وتُستخدم عادةً لمُعالجة صور اَلتَّدَفُّق التي لا تتوافق معه.

حكمة الجسد

ما الخبرة؟ ما الحياة؟ ما الحركة؟ ما الواقع؟

وللإجابة عن كل تلك الأسئلة سأضع إجابة القديس أوغسطين التي قدمها إجابةً عن سؤال «ما الزمن؟» عندما قال:

- مع أن إجابة ذلك السؤال تمكث في أعماقِ نفسي بالفِعل فإنك عندما تُباغتني بهذا السؤال أشعر بأنني لا أعرف!

فالخبرة والحياة والحركة والواقع جميعها صور لأوجه اَلصَّخَب والضوضاء التي استخدمت من أجل ترميز الأحاسيس والمشاعر والرغبات، وإذا سألتني التوّة ما الأحاسيس... إلى آخره؟ سأقول لك فقط:

- لا تكن سخيفًا فأنت تعرف جيدًا ماهيتها، فلا يُمكننا أبدًا الاستمرارية في مواصلة تعريف الأشياء بطريقةٍ غير مُحَددة دون الدخول في دوائر مفرغة، فالهدف من عملية التحديد هو الإصلاح، ذلك الأمر الذي ليس بمقدورنا الشروع فيه لأن الحياة الحقيقية ليست قابلة للإصلاح، وبناءً على ذلك فمن المُقتَرَح أنه في نهاية ذلك الفصل سيبدأ ما نُسَميه بالمُطلَق في تقديم نفسه في هيئة كلمة الرب، ولكن لو كان هذا أمرًا حَقِيقِيًا لعرفنا الإله طيلة الوقت لكن المفارقة تبدأ عندما نتساءل بعجب: ماذا لو كنا لا نعرفه؟ وذلك لأننا نحاول اختبار الشعور عن طريق وضعه داخل قوالب ثابتة وأفكار جامدة، تلك المسألة التي تُذكرنا بالمشكلة القديمة التي تتمثل في محاولة وضع المياه داخل طرود، أو بذل قصارى جهدنا من أجل حبس الريح داخل صندوقٍ ما، فالدين دائمًا ما يُعَلمنا أن الإله هو ذلك المصدر الخاص بالحكمة والإرشاد، ولقد أصبحنا مع مرور الوقت أكثر اعتيادًا أن الحكمة هي ذلك المزيج من المعرفة والنصيحة والمعلوماتية التي يتم التعبير عنها من خلال التصريحات اللفظية والبيانات الشفهية التي تتألف أساسًا من إعطاء التوجيهات المُحَددة، فلو كان ذلك حقيقيًا سيكون من الصعب فعلًا أن نرى كيفية استخلاص الحكمة من شيءٍ ما غير مُحَدد، ولكن في الواقع إن ذلك النوع من الحكمة المُتمثلة في الإصلاحات التوجيهية

والإرشادات تشكل نسبة قليلة جِدًا، فمعظم تلك الحكمة التي نستخدمها في كل يومٍ حياتي لم تأتِ إلينا من خلال البيانات الشفهية كما أننا لم نحصل عليها من خلال تلك التصريحات والأقوال التي تُعلمنا كيف نتنفس أو نبتلع أو نرى أو تخبرنا بكيفية انتقال الدم ودورانه وكيفية هضم الطعام أو مقاومة الأمراض، فتلك الأشياء تأتي بناءً على عمليات إعجازية أكثر تعقيدًا لا يمكن لأي كتاب تعليمي أو مهارة فنية أن تُنتجها.

هذه هي الحكمة الحقيقية -تلك التي لا علاقة لعقولنا بها- هي النوع المطلوب الذي نحتاج إليه بشدة من أجل حل المشكلات العملية للحياة البشرية، تلك الحكمة التي صنعت المعجزات من أجلنا بالفعل وما من سببٍ منطقي قد يمنعها من فعل المزيد!

على الجانب الآخر نجد أن الحمام الزاجل يمتلك تلك القدرة المدهشة على العودة إلى موطنه دون الاعتماد على الأجهزة التقنية ولا الحساباتِ، أو الاعتماد على حاسة التنبؤ بما هو قادم كما تمتلك الطيور المهاجرة الإمكانية على إعادة زيارة المواقع نفسها عامًا بعد الآخر، أضِف إلى ذلك أن النباتات يُمكنها تصميم وسائل مذهلة لتوزيع بذورها نحو الريح، فكل تلك الكائنات لا تقوم بتلك الأفعال عن عمد أي أنها لا تُخَطط من أجل فعل ذلك، كما أنها لا تُفكر فيما تُقدِم عليه، فلو كان بمقدورها التحدث لما أمكنها تفسير الأمر تمامًا كما ليس باستطاعة الشخص العادي تفسير كيف ينبض قلبه.

إن تلك الأدوات التي تمكنت من تحقيق هذه المكاسب هي أجهزة الجسد وعملياته الخاصة ما يعني أن هناك نمطًا غامضًا من الحركة لا يمكننا فهمه أو تعريفه، وبشكلٍ عام يمكننا القول إن البشر قد توقفوا عن تطوير أدواتهم الجسدية وبدلًا من ذلك فقد انغمسوا في اَلتَّكيُّف مع الحياة عبر الاستعانة بأدواتٍ خارجية، كما أنهم حاولوا حل مشكلاتهم عن طريق استخدام التفكير الواعي بدلًا من الاستسلام لحالة اللاوعي الذاتي، فذلك لم يعد بالكثيرِ من اَلنَّفع على المرء، فعلى سبيل المثال: هناك أنموذج النساء البدائيات اللواتي يمتلكن تلك القدرة على إنجاب أطفالهن بأنفسهن في أثناء عملهن في الحقول، مع ملاحظة أنهن يحرصن على استئناف أعمالهن تلك فقط بعد

أن يتأكدن من سلامة الطفل وحصوله على ضمانات الدفء والراحة، وعلى الجانب الآخر نجد أن المرأة المُتحضرة إذا واجهت الموقف نفسه تنتقل التوّة إلى أحد تلك المستشفيات ذات الأنظمة المُعقدة حيث تكون مُحاطَة بعددٍ من الأطباءِ والمُمرضات ومجموعة من الأجهزة والأدوات التي لا تُعَد ولا تُحصى لتُجبِر ذلك الكائن المسكين على الخروج إلى العالم وسط القيام بعددٍ من التشوهات والالتواءات والآلام المبرحة.

إن كون أجواء التطهير والتعقيم تلك قد منعت الكثير من الأمهات والأطفال من الموت لأمر صحيح فعلًا، ولكن علينا هنا طرح ذلك السؤال المهم: لماذا لا يمكننا الجَمع بين طريقة التعقيم تلك والطريقة الطبيعية السهلة لعملية الإنجاب؟

وللإجابة عن هذا السؤال وغيره من الأسئلة المُشابِهَة لقد تعلمنا أن نتجاهل أجسادنا ونحتقرها ونتهكها كما أن ذلك شَمل بدوره أيضًا كيفية وضعنا للإيمان داخل عقولنا، ويمكننا القول إن هذا المرض المُحدد الذي أُصيب به الإنسان المتحضر أشبَه بحاجز أو انشقاق بين العقل (تحديدًا القشرة الدماغية) وبقية أجزاء الجسد، وهذا يتطابق مع هذا الانقسام القائم بين الأنا والذات، والإنسان والطبيعة كما أنه يخلط بين وضع المرء وأفعى الأوروبورس المُضطربة التي لا تعرف أن ذيلها الذي تأكله ينتمي بدوره إلى رأسها!

لحُسن الحظ كان هناك عالمان خلال السنوات الماضية الأخيرة قد كرسا اهتمامهما بدراسة تلك الحالة من الانفصال وهما لانسلوت لو وايت وتريجانت بورو، ومن ناحيته قد أطلق وايت على هذا المرض اسم «الانفصال الأوروبي» ولم يكن ذلك لأن الأمر غريب على الحضارة الأوروبية الأمريكية ولكن لأنه كان سمة أساسية فيها، ومن ثَم فقد قدم كل من وايت وبورو تعريفًا طبيًا وتشخيصًا لتلك الحالة الانقسامية، وطرحوا المزيد من التفاصيل التي لا نريد أن تحتجزنا هنا والتي تتحدث بإيجازٍ شديد بلغة طبية أننا سمحنا للعقل بالتفكير من أجل مواصلة عملية التطوير والهيمنة على حيواتنا بشكلٍ لا يتناسب البتة مع «الحكمة الغريزية» التي أهملناها كثيرًا إلى حَد التراجُع والضمور، ونتيجة مُباشرة لذلك خضنا حربًا داخلية مع أنفسنا- فقد

رغب العقل في أشيَاء لم يكن الجسد يريدها كما أن الأخير تاق إلى أشيَاء لم يسمح بها العقل، وبدأ العقل إعطاء توجيهات لم يتبعها الجسد كما أن الجسد أطلق إشارات تحفيزية لم يكن العقل قادرًا على فهمها، وبطريقةٍ أو أخرى يتفق الإنسان المُتحضر مع ما قاله القديس فرانسيس حول النظر إلى الجسد باعتباره «الشقيق الأحمق».

حتى علماء الدين اللاهوتيون قد اعترفوا أن مصدر الشر والحماقة لا يكمن في الجسد المادي بوصفه كلًا، ولكنه يوجد تحديدًا في ذلك الجزء المُخَصص في الدماغ المُنفَصِل الذي يُطلقون عليه اسم «الإرادة»، فإذا قارنا الرغبة الإنسانية بالحيوانية سنجد أن هناك فوراق غير عادية، فالحيوان مثلًا يميل إلى تناول الطعام اعتمادًا على معدته، ويفعلها الإنسان اعتمادًا على عقله! فالحيوان يتوقف عن الأكل عندما تمتلئ معدته لكن الإنسان لا يعرف تحديدًا متى يُمكنه أن يتوقف، فعندما يتناول المزيد من الطعام بشراهة ما دامت معدته تسمح بذلك تجده لا زال يشعر بالخواء! فهو أسير تلك الرغبة المُلِحَة الخاصة بالإشباع.

إن هذا الأمر يُعزى بدرجة كبيرة إلى القلق وكذلك معرفة الواحد مِنا أن الحصول على إمداد ثابت من الطعام ليس بالأمر المؤكد، وبناءً عليه عليك أن تأكل الكثير قدر استطاعتك ويرجع هذا أيضًا إلى معرفتنا أن السعادة أمر غير يقيني في ظل العيش في عالمٍ غير آمن، ونتيجةً لذلك أصبح من المفترض تحقيق الاستفادة الكلية من مُتعَة تناول طعامٍ ما دون النظر إن كان هذا يُلحِق الضرر بعملية الهضم الخاصة بالإنسان، فالرغبة البشرية النَّهِمَة لا تعرف الشبع، فنحن نتلهف بشدة للحصول على السعادة التي لا نكتفي منها أبدًا، ومن ثَم فإننا نحفز أجهزة الإحساس لدينا حتى تصبح مُجَردَة من الشعور، فإذا أردنا مواصلة الشعور بالسعادة علينا امتلاك مُنبهات أقوى، وبعدَ ذلك وسيلة دفاعية يُصاب الجسد بالمرض ويرغب العقل في مواصلة سعيه والمُضي قُدُمًا.

يحاول العقل دومًا البحث عن السعادة ولأنه أكثر اهتمامًا بالمستقبل مُتجاهلًا الحاضر فإنه يتصور تلك السعادة ضمانًا لمستقبلٍ طويل تملؤه المُتَع والملذات إلى أجلٍ غير مُسمى، ولأنه يعرف في الوقت نفسه أنه ما من أجلٍ غير مُسمى فإنه يسعى

جاهدًا إلى حشد ملذات الجنة والخلود على مدار سنواتٍ قليلة، ولهذا السبب على وجه التحديد تعد الحضارة المدنية الحديثة أشبَه بالدائرة المفرغة في كافة الجوانب تقريبًا، فهي جائعة دائمًا بشكلٍ لا يُطاق وذلك لأن منهجها الحياتي يتسم بالإحباطِ المُستمر.

فكما رأينا التوّة أن جذور ذلك الإحباط تنشأ من فكرة أننا نحيا من أجل المستقبل، ذلك الأخير الذي يُعَد مسألة مُجَرَّدَة أي أنها نتيجة عملية الاستدلال العقلي الناجمة عن خبرتنا الحياتية التي لا وجود لها إلا داخل العقل، ويمكننا الإشارة في هذا السياق إلى أن الوعي الأساسي الابتدائي الذي يعرف الواقع بدلًا من الأفكار المتصورة حوله لا يعرف أبدًا المستقبل، فهو يعيش كليًا في الوقتِ الراهن ولا يتصور أكثر من تلك اللحظة الآنية، ولكن مع ذلك فإن العقل المُبتَكِر الإبداعي مثلًا ينظر إلى ذلك الجزء الذي تطلق عليه التجربة الحالية اسم «الذاكرة» وعن طريق دراستها جيدًا يتمكن من وضع عدد من التوقعات والتنبؤات، تلك التي تتسم بالنسبية وكذلك بالدقة الموثوق بها، فعلى سبيل المثال: ينطبق ذلك على تلك المسألة التي توصل لها المرء بعد تأمله الأحداث الماضية وهي أن «الجميع سيموتون» ومن هنا افترض المستقبل توفر درجة عالية من الواقعية، تلك التي بلغت ذروتها إلى حد فقدان الحاضر قيمته، فعلى أي حال المستقبل ما زال ليس هنا بَعد ولا يمكنه بأي حالٍ من الأحوال أن يكون جزءًا من التجربة الواقعية حتى يصبح حاضرًا.

إن ما نعرفه عن المستقبل هو أنه يتألف أساسًا من الأفكار المُجردة البحتة والعناصر المنطقية والمرجعيات والتخمينات والاستنتاجات والاستدلالات- تلك الأشياء التي ليس بمقدورنا أكلها أو شمها أو رؤيتها أو الإحساس بها أو سماعها أو الاستمتاع بها! فالسعي وراء ذلك أشبَه بأن تُلاحِق شبحًا ما! وكلما طاردته أسرع ركض قدمًا إلى الأمام، ولهذا السبب على وجه التحديد تسير شؤون الحضارة على وتيرة سريعة جِدًّا وكأنها في عجلة من أمرها، وللسبب نفسه أيضًا لا يمتلك الواحد مِنا القدرة على الاستمتاع بما لديه، وبناءً عليه فإنه يستمر في البحث عن المزيدِ والمزيد، فالسعادة لن تتكون من الحقائق الجوهرية الراسخة لكنها تتألف بدورها من الأفكار المجردة والأشياء السطحية مثل الوعود والآمال والتأكيدات، وعلى هذا فإن

هذا الاقتصاد الفكري الذي ضمم من أجل إنتاج السعادة ما هو إلا حلقة مفرغة مذهلة عليه إما تصنيع المزيد والمزيد من المُتَع وإما تدمير تلك الحالة الدائمة من النشوة والإثارة التي تنغمس فيها العين والأذن والنهايات العصبية مُخَلفةً صورة من صور الضوضاء الحتمية والانحرافات البصرية.

إن الموضوع المثالي لأهداف ذاك الاقتصاد هو ذلك الشخص الذي لا ينفك يحك أذنيه بالراديو النقال الذي يصحبه برفقته أينما ذهب طيلة الوقت، كما أن عينيه تقفان على شاشة التلفاز ثم تنتقلان بدورهما إلى المجلات والصحف وتظلان على هذا النحو وتجعلانه في حالة دائمة من النشوة من خلال وقوعه أسيرًا لعددٍ من اللقطات المثيرة للسياراتِ اللامعة الفارهة والأجساد الأنثوية البَراقَة وغيرها من الأسطح الحسية المفعمة بقدرٍ هائل من الحساسية -تلك التي تعمل كما علاج الصدمات- التي تشمل كل ما يُثير اهتمامات البشر من لقطات لعددٍ من المُجرمين، والأجسادِ المشوهة، والطائرات المُحطمة، ومباريات المصارعة، والمباني المحترقة.

إن الأدب أو تلك الخطابات التي تماشت مع هذا التيار الفكري صُنعت تحديدًا من أجل الإثارة دون القدرة على الإشباع، من أجل استبدال رغبة جديدة بكل جزء من المُتعَة لهذا التيار الذي صمم لإنتاج المزيدِ من الرغباتِ والشهوات الأكثر صخبًا وسرعة التي لا تقودنا إلا إلى العمل ليس من أجل هدفٍ معين باستثناء الحصول على الأموال التي يوفرها لشراء المزيد من أجهزة الراديو الحديثة، والسيارات الفارهة، والمجلات الأنيقة المصقولة، وأجهزة التلفاز المتطورة، كل تلك الأشياء التي تتآمر معًا بطريقةٍ ما لإقناعنا بأن السعادة تكمن تحديدًا في اقتناء المزيد منها، ومع ذلك الهرج والمرج وتلك الحالة من الضغط والتوتر العصبي فإننا أصبحنا مقتنعين أن النوم ما هو إلا إهدار لوقتنا الثمين، وأن علينا أن نستمر في مطاردة أوهامنا وتخيلاتنا تلك حتى الليل.

إن الحيوانات تقضي معظم وقتها في حالة نوم أو خمول وتتلذذ بفعلتها تلك دون أي مشكلة، ولكن لأن الحياة قصيرة فإنك تجد البشر يحشرون أكبر قدر ممكن من وعيهم ويقظتهم وأرقهم المُزمِن داخل عجلة سنواتهم الحياتية خوفًا من إضاعة

آخر لحظة من تلك المُتعَة المُذهلة، ليس معنى ذلك أن أولئك الناس الذين يخضعون لذلك النوع من الأمور مُجردون من الأخلاق، كما أن هذا لا يعني بالضرورة أن أولئك الذين يقدمون ذلك هم مجرد مجموعة من المُستغلين الخبثاء، مع أن الكثيرين منهم يتحلون بتلك العقلية الاستغلالية التي تُراهن دومًا على الحصان الثمين في خضم تلك الجولة المؤسفة.

إن المشكلة الحقيقية في واقع الأمر هي أن يبذل المرء قصارى جهده من أجل إرضاء العقل، فأن تُحاول إسعاد عقلك يعني أن تحاول شُرب المياه عبر أذنيك! فالمسألة مُحبطة جِدًّا كما أنها ليست قادرة على جلب الشعور الحقيقي بالسعادة، فهي تجعل الإنسان أقل حساسية بالنسبة إلى متع الحياة ومباهجها الشائعة البسيطة. إن هذه الرغبة العقلية الغامضة المُبهَمَة ٱلنَّهِمَة التي لا تعرف ٱلشَّبَع تجعل من الصعب جِدًّا على المرء أن ينزل إلى أرض الواقع، فهم لا يتقبلون فكرة وجوده وماديته، وبشكلٍ عام فإن الإنسان المتحضر لا يعرف ما الذي يريده، فهو يعمل من أجل النجاح، والثروة والزواج السعيد والمرح ومساعدة الأناس الآخرين أو أن يكون إنسانًا حقيقيًا، ولكن تلك ليست رغبات حقيقية لأنها ليست أشيَاء ملموسة فهي نواتج فرعية وربما يمكننا تسميتها بالنكهات أو أجواء الأشياء الحقيقية تلك الظلال التي لا وجود لها بعيدًا عن المضامين الجوهرية.

إن المال هو الرمز المثالي لكل هذه الرغبات، ولكن أن يكون مجرد رمز للثروة الحقيقية يعني أن يصبح بدوره هدف المرء الرئيس هو مثال صارخ للخلط بين أدوات القياس والواقع، فأبعد ما يكون عن الصحة أن نقول إن الحضارة العصرية مادية، وذلك لأن الشخص المادي هو الذي يُحب المادة ويحب العقل المُعاصِر أدوات القياس بدلًا منها، فهو ينشد الأسطح وليس المواد الراسخة الأكثر متانة كما أن الواحد مِنا يحرص على احتساء نسبة مُحَددة من الكحول الروحي ليس إرضاءً للجسد ولا من أجل تذوق طعمه السائل، ومن الناحية الأخرى تجد الإنسان مهووسًا ببناء تلك الواجهات المنزلية الباهرة المُثيرة للإعجاب بدلًا من توفيره مساحة حقيقية للعيش، وعلى هذا فإنه يميل إلى وضع تلك الصروح الهائلة وتشييدها لتظهر من الخارج كما القصور البارونية، مع أنها تبدو جحورًا من الداخل! تلك الوحدات

السكنية صُممت غرفها الداخلية بشكلٍ متفاوت، فمثلًا تجد تخصيص المساحة الأكبر من أجل ما يطلقون عليها «غرفة المعيشة» فتجد أن أبعادها مُناسبة جِدًا لمنزلٍ كبير كما أنها لا تعكس أي صور رئيسة للعيش أكثر من كونها تبدو وسيلة للترفيه فحسب، وقُلص حجم غرفة المطبخ إلى عدد محدد من الخزائن الصغيرة التي تجعل المرء يقف بالكاد فيها ولا يمكنه أن يتحرك بحرية أكبر ناهيك بمسألة الطهو، فتلك المطابخ الصغيرة الضيقة التي صُممت على شكل السفينة تجدها تعتمد بشكلٍ رئيس على الغاز خلال الطهو ومن هنا تظهر الكثير من الوجبات السريعة الجاهزة ومشروبات الكوكتيل والمُقَبلات بدلًا من الوجبات الصحية الأخرى، وذلك لأننا جميعًا نرغب في أن نكون «السيدات والسادة» فنحن نتوق إلى أن يرانا الآخرون وكأننا نمتلك الكثير من الخدم والموظفين وبناءً عليه فنحن لا نلطخ أيدينا في أثناء زراعة الطعام الجيد وطهوه، ولكن بدلًا من ذلك نشتري تلك المنتجات التي صُممت من أجل الاستعراض الخارجي وإثارة إعجاب الجماهير أكثر من اهتمامنا بفحواها- فنحن نميل إلى تلك الفواكه الهائلة الحجم العديمة المذاق والخبز الأقل حجمًا من الرغوة والنبيذ الذي زُيف عن طريق إضافة المواد الكيميائية والخضروات اَلْمُنَكَّهَة بالخلطة الدوائية الناجمة عن أنابيب الاختبار التي تجعلها تبدو ذات شكل خارجي باهر.

قد يفترض الواحد مِنا أن أكبر مثال لوحشية الإنسان المتحضر وحيوانيته هو شغفه الدائم بالجنس، ولكن في واقع الأمر ما من شيء حيواني ووحشي في ذلك، فمع أن الحيوانات تمارس الاتصال الجنسي عندما تشعر بالحاجة إلى ذلك بوصفه نوعًا من أنواع النمط الإيقاعي فإن ذلك الأمر لا يُثير اهتمامها في بعض الأحيان، ولكن بالنسبة إلى الإنسان المُتحضر تحتل الرغبة الجنسية صدارة المُتَع التي يسعى وراءها بقدرٍ كبيرٍ من القلق والتوتر، تلك الشهوة العقلية أكثر من الجسدية التي تظهر تحديدًا في مسألة العجز الجنسي عند الرجال وتتجلى في تلك اللحظة التي يحاول فيها القيام بالفِعل ويسعى عقله خلف ما لا تبحث عنه جيناته خلال إحساسه الراهن بالرغبة، وهذا ما يُربِكه لأنه ببساطة غير قادر على معرفة أن جسده لا يرغب في تلك الشهوة الآن، وتجده يقضي ساعات وساعات من أجل الوصول إلى هذا الشعور لكن عندما يُصارحه الواقع بأن جسده لا يرغب في التعاون تصيبه تلك الحالة المُشابهة

لمسألة «أن العين تشتهي أكثر مما تحتاجه المعدة» ومن ثَم يبدأ الحُكم على المرأة اعتمادًا على عوامل بصرية دماغية بدلًا من أن يقوم بذلك من واقع الشعور الجنسي الغريزي، فهو ينجذب إلى شريكته تمامًا بتلك الصورة التي ينظر بها إلى السطح البَراق اللامع، وتجده يُراقِب المشهد بتلك الصورة التي يراها في شريط سينمائي بدلًا من مُعايشة الجسد الحقيقي، فهو يرغب في شيءٍ ذي بنية عظمية كما بنية الولد الذي من المفترض أن يدعم تلك المنحنيات الخارجية ويصقل تموجات الأنوثة، كأنه لا يتعامل مع امرأة بل مع حلم مطاطي هائل.

إن وظيفة الجنس في حد ذاتها تدخل في إطار «الحكمة الغريزية»، وليس المطلوب بذل الكثير من أجل مُضاعفة الإحساس باللذة من أجل إسراع إيقاعها وضمان استمراريتها. إن السبيل الوحيد لاستغلال ذلك عبر التخيل الدماغي وإحاطتها بعدد من الاقتراحات المستقبلية للمباهج والملذات غير المحددة التي هي في طريقها إلينا- وكأن عناق النشوة لا يمكنه أن يتأتى أبدًا إلا من خلال تغيرات السطح.

يمكننا القول إن ذلك المثال المُحدد يُبرز موقف العقل ضد الجسد وكذلك أدوات القياس ضد المادة توحي بعبودية الإنسان المتحضر للساعات! فالساعة هي ذلك الجهاز المُريح المُلائم الذي اتفقنا على استخدامه من أجل تذكيرنا بموعد صديقٍ ما أو مساعدة الآخرين على فعل الأشياء معًا، مع أننا كنا نقوم بهذا النوع من الأشياء قبل اختراع الساعات، وأنا لا أعني بقولي هذا أننا بحاجة إلى تدميرها وتحطيمها لكننا ببساطة نود أن نضعها في مكانها، فهذا الأمر لا يستقيم عندما نحاول أن نتكيف مع إيقاعاتنا البيلوجية الخاصة بتناول الطعام والنوم والعمل والاسترخاء.

لقد بلغت عبوديتنا تلك الأدوات الميكانيكية مداها، وقد تورطت ثقافتنا فيها أكثر وبناءً عليه فقد أصبح الإصلاح مجرد أمل بائس، لقد آمنا أن حضارتنا سوف تنهار بالكامل دونها، ولكن ماذا عن ثقافة أقل اعتمادًا على العقل وبإمكانها خلق حالة من التزامن مع الجسد على طريقة الإيقاعات الفطرية بدلًا من الساعات؟ ومن هنا يمكننا القول إن لقدرة العقل على التنبؤ بالمستقبل علاقة وثيقة بذلك الخوف الهستيري من

الموت فعندما يتهالك جسد المرء ويهترئ وعندما يتعب عقله يبدأ جسد الكائن الحي يُرَحب بالموت، ولكن من الصعب أن نفهم كيف للواحد مِنا أن يُرَحب به وهو في سن الشباب والقوة، ونتيجة لذلك فإننا ننظر إليه برهبة وفزع ونراه حدثًا مروعًا.

ينظر العقل إلى المستقبل عبر فلسفته غير المادية متصورًا أنه من الأفضل المضي قدمًا على نحوٍ جيد إلى الأبد- دون أن يُدرك مدى المَلل غير المُحتَمَل الذي سيتعرض له خلال تلك العملية غير آخذ في حسبانه أن العقل يفشل في رؤية ماديته الخاصة! إن عقلك لا يعرف مثلًا أنه عرضة للتغيير! فرغباته سوف تختلف وتتحول وسيأتي اليوم الذي سيصبح فيه الموت أمرًا جيدًا، ففي تلك اللحظة التي تفتح فيها عينيك على نهارٍ مُشرِق عقب ليلة سعيدة لا تشعر برغبتك في الخلود إلى النوم، ولكن بعد يوم عمل شاق مُرهِق يصبح شعورك بفقدان الوعي مُتعَة غير عادية.

لسوء الحظ لا نموت جميعنا بسلام، فنحن نلقى حتفنا من خلال الحوادث والأمراض المؤلمة، ذلك الأمر المأساوي حقًا الذي يتعرض له المرء عندما يمتلك عقلًا شَابًا يقظًا، وتجده يُعاني صراعات مع جسده الذي يحتضر، في الواقع أنا شديد الثقة بأن الجسد عندما يموت فإنه حقًا يتوق ولعًا من أجل ذلك، فإنه يجد في لحظةٍ ما أن مقاومة المرض أو شفاء الجرح هو أمر يتجاوز حدود قدرته، ومن ثم فإنه يستمر في المعاناة حتى يتجه لاحقًا إلى الموت، فإذا كان وعينا أكثر حساسية للمشاعر والدوافع للكائن الحي ربما يمكننا حينها مشاركة تلك الرغبة، فهذا يحدث في بعض الأحيان، ونحن نقترب من تلك الحالة عندما نصاب بمرضٍ شديد ونشعر فعلًا بأننا نتمنى الموت مع أننا في بعض الأحيان ننجو إما لأن العلاج الطبي نجح في تنشيط الجسد وإما لأنه ما زال هناك قوى غير واعية داخل الكائن الحي باستطاعتها الشفاء.

لقد اعتدنا التفكير في الإنسان بعدّه يُمَثِّل ثنائية العقل والجسد، وعددناه «عاقلًا» ونظرنا إلى الحيوان بعدّه كائنًا أخرق أصَم، وبناءً عليه فقد أهانت ثقافتنا حكمة الطبيعة ودمرت ذلك الكائن البشري بوصفه كلًا، فنحن نشعر بالإحباط على الدوام بسبب تفكيرنا اللفظي المجرد الذي يعطي للعقل انطباعًا زائفًا بأنه قادر على التحرر من القيود والحدود الموجودة كافة. إنه ينسى أن نهائية أي شيء ما هي إلا مجرد

مفهوم مُجرّد يقنعنا بأننا نرغب في ذلك الوهم بوصفه وسيلة للعيش الحقيقي، ذلك الرمز الخارجي لطريقة التفكير تلك الأكثر عقلانية الذي قام بدور ماكينة منحتنا الشعور بأننا قادرون على الاقتراب من اللا نهاية.

علينا أيضًا القول إن تلك الماكينة طالبتنا ببذل مجهودٍ مضن يفوق قدرات الجسد، ومن ثم خلقت انطباعاتٍ رتيبة لا يمكن للإنسان احتمالها كما العلاقة بين الأداة والخادم، فلقد عبدنا عقلانيتها وكفاءتها وقدرتها الفائقة على إزالة حدود المكان والزمان، وقد سمح لنا ذلك بتنظيم حياتنا، فأناس المدينة الحديثة هم أولئك الذين يسكنون تلك الماكينة التي دهستهم عجلاتها قبلًا، لقد قضوا أيامهم في القيام بأنشطة تُختَزل في العَد والقياس، ومن ثَم فقد عاشوا في عالمٍ مجرد رشيد لا يسير بشكلٍ منسجم متناغم مع إيقاعات عملياتهم البيولوجية. في حقيقة الأمر إن هذا النوع من الأنشطة العقلية أصبح بمقدور الآلات والماكينات القيام به على نحو أفضل من البشر، وهذا يجعلنا نقول إن العقل البشري إذا استمر على تلك الحالة سوف يصبح في المستقبل القريب مجرد آلة قديمة عفاها الزمن بالنسبة إلى الحساباتِ المنطقية، فقد حلت بالفعل الحواسيب الإلكترونية والميكانيكية محل الحاسوب البشري وفاقته من حيث السرعة والكفاءة، فلو استمرت قدرات العقل الإنساني محصورة فقط في القدرة على العَد والحساب سوف يصبح مجرد بضاعة راكدة في العصر الذي ستتفوق فيه آلية الماكينات وتصل إلى قمة ذروتها.

يستخدم الإنسان بالفعل أدوات عديدة لا حصر لها لإزاحة ذلك العمل الذي تُنجزه الأعضاء الجسدية الموجودة في الحيوانات، وتلك الموجة بالتأكيد تتماشى مع ميله إلى تجسيد الوظائف الفكرية المنطقية للعقل، وعلى هذا فقد سَلم دون أن يدري إدارة الحياة لعددٍ من الوحوش الكهرومغناطيسية، وبعبارةٍ أخرى لم يعد المحرك الرئيس للعملية يتمثل في المصالح والأهداف البشرية، فإذا استمرت حياتنا على هذا النحو، إذا واصلنا سعينا نتطلع فقط إلى مصافحة المستقبل وأن نجعل هم العقل الأساسي هو الحساب والتنبؤ والعَد سيصبح المرء لاحقًا في نهاية المطاف مجرد كائن تافه مُتطفل على الساعاتِ والزمن!

٢٧٠٧٩٠٢٣٣١

أود أن أقول إنه ليس هناك وجهة نظر مُحددة وراء ترشيد الحياة، فالعقل ماهر بما يكفي ليرى بوضوح تلك الدائرة المفرغة التي صنعت نفسها بنفسها، لكنه لا يملك القدرة على فعل أي شيء، فما نطلبه ليس التخلي عن المنطق من أجل القضاء على القلق وذلك لأن المرء كلما بات أقل منطقيةً قلق أكثر، فمن غير المنطقي أن نشن حربًا عصرية يخسر فيها الجميع، ما من طرفٍ حقًا يود أن يشرع في الحرب، ولكن بما أننا نعيش في دائرة مفرغة فنحن نُصِر على بدء الحرب لنمنع الطرف الثاني من الشروع في ذلك أولًا.

نحن نسلح أنفسنا علمًا بأننا إن لم نفعل ذلك سيفعله الطرف الثاني، وهذا أمر حقيقي فعلًا، فإذا لم نُبادر بفعل ذلك سيُحقق الطرف الآخر فائدة على حسابنا دون قتال، وعند تأمل وجهة النظر العقلانية تلك نجد أنفسنا نقف في المأزق نفسه الذي وقف فيه القديس بولس الذي قال:

«لأن الإرادة حاضرة عندي، وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد. لأني لست أفعل الصالح الذي أريد».

لكن الأمر ليس كما افترضه القديس بولس لأن الإرادة أو «الروح» عقلانية منطقية، وكما قيل سابقًا إن المنزل المُنقسِم على نفسه لا يُمكنه الصمود ولأن الكائن الحي بأكمله قد فسد لأن العقل قد انشق عن المعدة كما أن الرأس انفصل بشكلٍ غير واعٍ عن وحدته مع الذيل، ومع ذلك فهناك مبررات قليلة للأمل خلال المستقبل القادم أن يتم التعافي من تلك الحالة من السلامة العقلية في تلك اللحظة التي ستبدو فيها الحلقة المفرغة غير مُحتمَلة، وحينها سوف تستيقظ أعداد هائلة من البشر على تلك الفاجعة المأساوية التي يخدعون بها أنفسهم طيلة الوقت، ولكن بالنسبة إلى هؤلاء الذين ينجحون في رؤية الدائرة على حقيقتها ويعرفون فعلًا لماذا هي دائرة، يجدون أنه ما من بدائل أخرى لحل الأمر سوى أن تكف فورًا عن الدوران، فبمجرد أن يرى المرء مِنا تلك الدائرة بصورةٍ كاملة كُلية يختفي فورًا ذلك الوهم الذي يجعله يظن أن الرأس مفصول عن الذيل، وحينها تتوقف التجربة عن التأرجح والتذبذب ويصبح الواحد مِنا قادرًا على التواصل الفوري مع حكمة جسده والتعرف إلى تلك

الأعماقِ الخفية لمضمون ذاته، ولأنني أتحدث عن حكمة الجسد وضرورة إدراك كوننا ماديين لا يعني ذلك أنني أؤكد الفلسفة المادية المُتعارَف عليها التي تقول إن الكون النهائي ما هو إلا مادة، فالمادة في رأيي في نهاية المطاف هي مجرد كلمة، أجل إنها صخب اتفق البشر على صُنعه تُشير إلى أشكال وأنماط اتخذت خلال تلك العملية.

نحن لا نعرف ما تلك العملية على وجه التحديد، وذلك لأنها لا تمتلك «ماهية»، فهي بإيجاز شيء غير مُحَدد ولا يمكن تعريفه عن طريق مفهوم ثابت أو وسيلة قياس، وإذا أردنا أن نُبقي على لغتنا القديمة فسنشير مثلًا إلى مصطلح «الروحية» بالأشياء غير المُحَددة التي تهرب من تلك الإطارات الخاصة بالأشكال الثابتة، ويمكننا القول إن المادة هي الروح وقد سميت بذلك الاسم لاحقًا لأن العقل يستخدم مفردة لكل شيء بالإضافة إلى كونه يشتمل على مراكز التفكير والمنطق والحساب، فإنه أيضًا يعد جزءًا من الجسد، فهو يعمل بشكلٍ طبيعي تمامًا كما القلب والمعدة، من الناحية الأخرى يمكننا القول إنه يصح استخدام العقل في أي شيء خلاف أن يؤدي دور عدو الإنسانية، فحتى يُستخدم بشكلٍ جيد يتعين أولًا أن يوضع في مكانه الصحيح لأن العقل قد خُلق للإنسان وليس العكس، فوظيفة العقل هي أن يخدم الحاضر الواقعي الحقيقي، وليس أن يُرسِل الإنسان بعيدًا من أجل مُطاردة شبح المستقبل.

إضافة إلى ذلك نجد خلال حالتنا الاعتيادية من التوتر والإجهاد النفسي أن العقل لا يعمل بشكلٍ جيد، وربما يرجع سبب ذلك إلى أن تلك الصور المجردة التي يحملها في داخله تصبح بغتةً ذات أثر واقعي عظيم، فعندما يخرج القلب مثلًا عن نظامه الطبيعي نصبح أكثر وعيًا بنبضاته غير المنتظمة، ونشعر حينها بالتشتت والتشويش الرهيب كونه يخفق بقوة على هذه الحال داخل الصدر، وبناءً عليه فإن من المُحتمل أن التفكير والتخطيط معًا يُصيبنا بالإرهاق العقلي، ومن ثَم يعد علامة على الاضطرابات الدماغية، وبوصفها طريقة لمواجهة ذلك يفترض بنا أن نترك العقل يعمل ويمارس عملياته المنطقية والحسابية بشكلٍ غير واع تمامًا كما تعمل بقية الأجهزة الجسدية، فعلى أي حال العقل ليس عضلة ونتيجةً لذلك فإنه لم يُصمم من أجل الإجهاد والإرهاق، ومع ذلك فإننا لا زلنا نرى الناس يقطبون جبينهم ويجعدون

وجوههم عندما يقفون على أعتابِ التفكير أو التركيز، فهم يتصرفون حينها وكأنهم يدفعون بأدمغتهم عنوة، وإذا بك تجدهم يتعاملون مع عدد لا يُحصى من المشكلات العقلية والنفسية وكأنهم قوالب حجرية ثقيلة، والآن يجب عليك ألا تبذل قصارى جهدك في طحن الطعام حتى يمكنك هضمه، ولست مطالبًا ببذل الكثير حتى يمكنك أن ترى، أو أن تسمع، أو أن تستقبل الإشارات العصبية، فأنت تملك تلك الآلة الحاسبة الصاعقة الخاطفة التي يمكنها تلخيص عمود طويل من الأرقام من نظرة واحدة، تلك التي تجعل المُفكر العبقري قادرًا على استيعاب صفحة كاملة في أثناء القراءة خلال بضع ثوان محدودة، كما أنها تعد السبب الرئيس لأن تتمكن شخصية موسيقية فَذَة مثل موتسارت من فهم معنى التناغم وَالطِّبَاق وتمازج الألحان منذ مرحلة الصبا، فكل هذه ببساطة أمثلة لاستخدام الإنسان اللائق تلك الآلة المُذهلة التي يمتلكها، فحتى أولئك الذين لا يتمتعون بعلاماتِ العبقرية لديهم القدرة العقلية نفسها، فإذا أخذنا مثالًا لذلك لعبة تغيير الأحرف لأي كلمة سنجد أننا سنعمل جاهدين على الأحرف ساعاتٍ، وسوف نقوم بتجربة كل الأنظمة حتى نستطيع إعادة ترتيبها بالشكل الصحيح كما كانت حتى نكتشف في النهاية الكلمة المشفرة، ولكن إذا حاولنا عوضًا عن ذلك النظر إلى الكلمة غير المرتَّبة بعقلٍ شديد الارتياح سوف نتمكن في غضون ثوان من الحصول على الإجابة الصائبة دون أن نبذل أي جُهد يُذكَر.

الأصح ألا نثق بتلك الإجابات التي نحصل عليها بعد إرهاق عقولنا وإجهادها على نحوٍ واضح، فتلك السريعة التي لا نبذل فيها أي مجهود ذهني هي الأكثر مُلائمة لحل المشكلات المنطقية، وذلك لأنها تُصافح العقل بشكلٍ غير واع، فالعقل هو أعلى أشكال «الحكمة الغريزية» وأرقاها، وعلى هذا فينبغي أن تكون طريقة عمله مثل ذلك التوجه الغريزي عند الحمام الزاجل مثلًا أو مثل حالة الجنين في رحم أمه، يتعين أن يتم ذلك بشكل غير واع دون الحاجة إلى التعبير عن العملية أو تحديدها أو معرفة كيف تتم، فالعقل الواعي يلقى مصير القلب الواعي نفسه، فهو يشهد بدوره حالة من الخَلل والاضطراب ويتجسد في هذا الشعور الحاد المُتمثل في الانفصال بين الأنا والتجربة الحياتية، فالشيء الوحيد الذي يجب على العقل القيام به هو أن يُحسِن التصرف عندما يبدأ الوعي تأدية دوره الذي صُمم من أجله بدلًا من التملص

والالتفاف هربًا من التجربة الحالية الحاضرة، فعليه أن يصبح واعيًا بذلك دون بذل أدنى جُهد.

لقد تَمكن العالِم لانسلوت لو وايت من مُناقشة تلك المسألة من خلال كتابه «التطور التالي في حياة البشر» الذي اتسم بقابليته للقراءة ومدى عُمقه وأهميته مع أن الجزء الخاص بالمبدأ الوحدوي في الفيزياء والبيولوجيا كان مخصصًا أكثر للقارئ العلمي البَحت، أضِف إلى ذلك تلك الأسس الاجتماعية للوعي التي وضعها بورو وكذلك كتابه هيكل الجنون أو الاختلال العقلي الذي نفدت طبعاته مع الأسف، لكن أغلبية مواده نُشرت لاحقًا في كتاب «علم الأعصاب الإنساني»، ومن المُحتمل أن يكون هناك علماء آخرون قد ساروا في الاتجاه نفسه لكنني لست على دراية بهم، لقد أخذت الحقائق حول تلك المسألة من كتاب نوربرت وينر المدهش «علم التحكم الآلي»، ويعد دكتور وينر أحد أبرز علماء الرياضيات الذي تولى المسؤولية بشكلٍ أساسي عن أكثر أجهزة الكمبيوتر الكهربائية ملاءمة، كما أنه كان يمتلك قدرًا متطورًا من المعرفة بطب الأعصاب وبناءً عليه فقد تمتع بتلك القدرة على الحُكم إلى أي مدى يمكن لتلك الاختراعات أن تصل من أجل إنتاج عمل الكائن البشري، ولقد أشار في كتابه إلى تلك الملاحظة الشديدة الأهمية التي تقول:

«من المُثير للاهتمام القول إننا ربما سنواجه أحد قيود الطبيعة التي من خلالها ستصل تلك الأجهزة المتخصصة إلى تردي كفاءتها وسيقود هذا بدوره إلى انقراض الأنواع، وحينها سيكون العقل البشري في طريقه إلى هذا التخصص المدمر».

يمكنني أن أختتم هذه الفقرة بقولي إنك إذا لم تنجح في غضون دقيقة عليك بمُتابعة القراءة وإلا سيباغتك الشعور بالانزعاج مع ذاتك أو معي، وحينها سوف يستمر الإرهاق الذي سيكون السمة المُحددة للعملية ذاتها.

أن تكون مُدرِكًا!

وحدهم أولئك الذين لا يُدركون جيدًا طبيعة المشكلة هم مَن يطرحون ذلك السؤال القائل «ماذا نفعل حيال الأمر؟»، فحتى تحل مشكلة ما على أي حال عليك أن تفهم أولًا أن مسألة فهمها ومعرفة الأمر الذي باستطاعتك فعله حيالها شيء

واحد، وعلى الجانب الآخر إن محاولة فعل شيء ما حيال مشكلة أنت لست قادرًا على تفهمها في الأساس أشبَه بمحاولة إزالة الظلام عن طريق دفعه جانبًا بيديك المجردتين مع الأخذ في الحسبان أن الظلام يختفي ويتلاشى على الفور في تلك اللحظة التي يظهر فيها الضوء، وهذا ينطبق بدوره على المشكلة الموجودة أمامنا الآن، والسؤال هنا كيف لنا أن نشفي ذلك الانقسام الموجود بين الأنا والذات، والعقل والجسد، والإنسان والطبيعة؟ كيف لنا أن نضع نهاية لكل تلك الدوائر والحلقات المفرغة التي أنتجتها؟ كيف لنا أن نختبر الحياة بوصفها شيئًا آخر خلاف فخ العسل الذي نؤدي فيه دور الذباب الذي يُعاني؟ كيف نستطيع العثور على الأمن والسلام العقلي في عالمٍ تتسم طبيعته بعدم الأمن والتغيير المتواصل؟

إن كل تلك التساؤلات الملحة تتطلب وسيلة ومسار عمل منهجيًا، وفي الوقت نفسه قد كشفت جميعها أن المشكلة غير مفهومة بَعد، فنحن لسنا بحاجة إلى اتخاذ إجراء ما لكننا بحاجة إلى المزيدِ من الضوء، ذاك المُتمثل في الوعي حتى نكون مُدركين إدراكًا كاملًا حياتنا وتجربتنا الحياتية الحالية كما هي، ودون وضع تصورات فكرية عنها، بعبارة أخرى عليك أن ترى وتشعر بما تختبره في حياتك كما هو، وليس كما يُعَرِّفهُ الآخرون، إن المطلوب منك ببساطة شديدة أن تفتح عينيك، فهذا في حد ذاته يجلب التحول الأبرز غير الاعتيادي في الفهم والعيش ويكشف لنا أن الكثير من مشكلاتنا محض وهم، وهذا مجرد تبسيط للفكرة لأن معظم الناس يتصورون أنفسهم وهم واعون تمامًا بالحاضر بالفعل لكنهم لا يعرفون أن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة لأن الوعي هو النظر إلى الواقع بعد ٱلتَّحَرُّر من الأفكار والأحكام، فمن المستحيل أن نحدد ونسجل ما يكشف عنه.

يمكننا القول إن أي شيء يمكن وصفه هو فكرة وبناءً عليه لا يمكنني الإدلاء ببيان إيجابي إزاء أي شيء ليس فكرة ينتمي إلى العالم الواقعي ويجب عليّ أن أتقبل التحدث عن تلك الانطباعات الزائفة التي يحذفها الوعي بدلًا من تأمل الحقيقة التي يكشفها تلك التي لا يمكن التعبير عنها إلا بعد ترميزها في هيئة كلمات تعني القليل أو لا شيء بالنسبة إلى أولئك الذين لا يمتلكون فهمًا مباشرًا للحقيقة موضوع البحث.

إن تلك الأشياء الأكثر حقيقية وإيجابية هي تلك التي يتعذر فهمها فالأمر أشبه بطلاء وردة طبيعية باللون الأحمر! وعلى هذا فإن معظم النتائج التالية التي سنحصل عليها سوف تتسم بصفة السلبية، فالحقيقة لا تتكشف إلا بعد إزالة تلك الأشياء التي كانت تحجب نورها فالفن لا يختلف عن النحت مثلًا، فكلاهما لا يعتمد على البناء لكنه يعتمد على التشريح. ومن جهة أخرى لقد عكست تلك التساؤلات السالفة الذكر الخاصة بإيجاد الأمن والسلام العقلي أننا لا نفهم مشكلتنا الرئيسة بَعد لذلك قبل المُضي قُدمًا علينا أن نوضح أن ذلك النوع من الأمن الذي نتحدث عنه هنا يخص الأمان النفسي والروحي في المقامِ الأول، فمسألة الوجود في حد ذاتها تتطلب توفر الحد الأدنى من المستوى المعيشي للفرد من الملبس والطعام والشراب مع فهم أن هذا لا يمكنه أن يدوم إلى الأبد، ولكن إذا حصلنا على ضمان باستمرارية ذلك الحد المعيشي الأدنى مدة ستين عامًا فإن ذلك بدوره سيشبع عقل المرء وعلى هذا فإنه سيقلص مشكلات البشرية، ولكن السبب المباشر وراء عدم امتلاكنا هذا الضمان هو أن اهتماماتنا تتجاوز بكثير تلك الحاجات الأساسية.

ينبغي أن نكون واضحين منذ البداية، وأن نعترف أن هناك تناقضًا وتضاربًا بارزًا بين الرغبة في أن نكون آمنين بشكلٍ مثالي، وأن نعيش في كونٍ تتسم طبيعته باللحظية والانسيابية، لكن ذلك التناقض يكمن في منطقة أعمق قليلًا من ذلك الصراع المُجرَد بين الرغبة في الشعور بالأمن وحقيقة التغيير، فإذا أردت مثلًا أن أشعر بالأمن سأحمي ذاتي من تدفق الحياة وسأنفصل عن الحياة، وهنا تحديدًا في معنى الانفصال هذا أشعر بعدم الأمن! فأن تشعر بالأمن والطمأنينة يعني أن تعزل نفسك وتحصنها، ذلك الشعور الرهيب بالعزلة الذي يجعلني أشعر بالوحدة والخوف، بعبارةٍ أخرى كلما حصلت على قدرٍ أكبر من الأمن حاصرنا أنفسنا بأنفسنا لأن الرغبة في الشعور بالأمن والإحساس بعدم الأمان وجهان لعملة واحدة فعندما تحبس أنفاسك فإنك تفقدها.

إن المجتمع الذي يقوم على مبدأ السعي وراء الشعور بالأمن ليس أكثر من مجتمع يحرص على إقامة مسابقة لا تنتهي من حَبس الأنفاس تلك التي تُرهِق أفراده وتجعلهم مُجهدين ومتوترين على الدوام، فنحن نبحث عن الأمن ونحصن

أنفسنا ونسجنها بطرائق عديدة، فنحن نتوق ولعًا إلى الحصول على حماية ألقابنا؛ «الحصري»، «الاستثنائي» فنسعى إلى الذهاب إلى أكثر الكنائس أمانًا، ونحاول الالتحاق بأفضل الشعوب وأرقى المجموعات وأعلى الدرجات الاجتماعية والأشخاص اللطفاء، تلك الوسائل الدفاعية التي تقود إلى حالة من الانقسام بيننا دون أن نعرف أن هذا الإحساس بعدم الأمن سيؤدي إلى زيادة الوسائل الدفاعية التي نحرص على القيام بها بإيمانٍ عميق صادق، ونحاول فعل الأشياء الصحيحة لنعيش بأفضل طريقة ولكن هذا في حد ذاته تعارض آخر.

لقد كنت أفكر بجدية في أمرٍ واحد فقط يتمثل في محاولة الارتقاء إلى مستوى معيشي مثالي، كنت أحاول القيام بتطوير ذاتي وحينها انقسمت إلى جزأين، فهناك تلك الأنا الجيدة التي تود العمل على تحسين تلك الذات السيئة، فالأنا تمتلك كل النوايا الجيدة وتود تهذيب الذات المُشاكسة الضالة، ولكن ذلك الصراع الناشئ بينهما يؤدي بدوره إلى التشديد على الفارق بينهما، ونتيجةً لذلك سأشعر بالانفصال أكثر من أي وقتٍ مضى وحينها سيزيد شعوري بالوحدة وغيرها من المشاعر السلبية القاطعة وهذا سيجعل الذات تتصرف على نحوٍ سيئ، من الصعب حَقًّا أن نبدأ فهم المشكلة ذاتها ما دمنا لم نصارح أنفسنا بشكلٍ واضح أن تلك الحالة من الشوق إلى الأمن هي في حد ذاتها مؤلمة ومتناقضة، وأننا كلما سعينا وراءها أصبحت أكثر إيلامًا، وهذا أمر صحيح بغض النظر عن شكل ذلك الأمان الذي نرغب في الحصول عليه، والمفارقة تكمن هنا في أنك ترغب في أن تشعر بالسعادة وأن تنسى نفسك، والمأساة هي أنك كلما حاولت أن تنساها أصبحت أكثر قدرة على تذكرها، فأنت تود أن تهرب من الألم لكن كلما كافحت من أجل الهرب بعيدًا أشعلت نار العذاب داخلك تلك التي تخشاها طيلة الوقت، كما أنك ترغب في أن تتحلى بالشجاعة لكن الجهد الذي تبذله من أجل تحقيق ذلك الغرض يتمثل في خوفك وركضك بعيدًا عن ذاتك، والشيء ذاته يحدث عندما ترغب في أن تنعم بحالة من السلام العقلي، لكنك عندما تشرع تبذل مجهودًا من أجل تحقيق ذلك الغرض تبدو وكأنك تحاول تهدئة الأمواج عن طريق استخدام مكواة مُسَطحة.

في الواقع نحن معتادون التعامل مع تلك الدائرة المفرغة من القلق، ومع أننا نعرف

جيدًا أن القلق أمر عديم الجدوى نستمر في فعل ذلك، فنحن نقلق لأننا نشعر بعدم الأمن ولأننا نرغب في اختبار الشعور الحقيقي بالأمان.

إن مسألة إطلاقنا أسماء سيئة على رغباتنا لا يُخَلصنا منها، فما يتعين علينا اكتشافه أن السعي وراء الأمان هو أمر مؤلم للغاية ففي تلك اللحظة التي نتوهم فيها أننا حصلنا على شيءٍ ما فإننا نُدرك أن هذا الشيء لا يُعجبنا على الإطلاق، وبعبارةٍ أخرى إذا استطعنا تفهم ما نبحث عنه سيكون الأمن في حد ذاته عُزلَة نُحاصِر بها ذواتنا تمامًا كما لم يخبرك أحد من قبل بأن عليك حبس أنفاسك مدة عشر دقائق فأنت تعرف في قرارة نفسك أنك غير قادر على فعلها، ومن ثَم فإن كل المحاولات تصبح غير جالبة الراحة.

إن الشيء الأساسي لتَفَهُم ذلك هو أنه ما من شعورٍ بالأمن أو الأمان، وهناك مثال لأسوأ تلك الدوائر الخبيثة المفرغة التي تتمثل في مشكلة ذاك الشخص المُدمِن على الكحول، ففي حالات كثيرة يعرف جيدًا أنه يُدَمِر نفسه، وأن النبيذ ما هو إلا سم قاتل، وأنه يكره رؤية نفسه مخمورًا حتى أنه لا يطيق طعم الكحول، ومع ذلك فإنه يُفَضل أن يحتسيه بدلًا من أن يضطر إلى مواجهة أهوال الحاضر تلك التي تجعله يشعر بالخوف من ذلك العالم غير الآمن، وهنا يرقد جمود العالم وصلابته، ومن ثَم يجب عليك ألا تقف في مواجهة ذلك الشعور بعدم الأمن دون القدرة على تفهمه وحتى تتمكن من ذلك ينبغي لك أن تكونه بدلًا من أن تُواجهه! الأمر أشبَه بتلك القصة الفارسية التي تحكي عن هذا الحكيم الذي ذهب وطرق باب الجنة وحينها جاءه صوت الإله من الداخل وسأله قائلًا:

- مَن هناك؟

- أنا، أجابه الحكيم وحينها رد عليه الإله:

- لا مكان لي ولك!

ذهب الحكيم بعيدًا، وأخذ يفكر في تلك الإجابة مرارًا وتكرارًا في تأمُل وعندما عاد المرة الثانية طرح الصوت السؤال نفسه، وأجاب الحكيم مُجددًا:

- أنا.

ظل الباب مُغلقًا وبعد مرور سنوات عدة عاد الرجل مرة أخرى وعندما طرق الباب سأله الصوت:

- مَن هناك؟

فأجابه الحكيم:

- أنا نفسك!

في تلك اللحظة فُتِح الباب على الفور.

خلاصة ذلك أن عليك أن تفهم أن كل الأشياء تخضع لقانون التغيير حتى تلك المراحل الانتقالية للحياة، وبناءً عليه فإن مفهوم الأمن يعتمد على الشعور أن هناك شيئًا ما مؤقتًا في داخلنا، ذلك الذي بإمكاننا تحمله عبر الأيام، فنحن نكافح حقًا من أجل المحافظة على إحساسنا بالأمن.

علينا القول إننا نُعاني على الدوام مسألة ضمان استمرارية وجود ذلك المركز الروحي لوجودنا وكينونتنا وأمانه الذي نُطلِق عليه اسم «أنا»، ذاك المكون الرئيس لعملية التفكير والشعور والمعرفة، فنحن ببساطة شديدة لن نُدرك عدم وجود ضمان للشعورِ بالأمان إذا لم نؤمن في قرارة أنفسنا بأن تلك الأنا غير موجودة، وهذا الفَهم لن يتأتى بغيرِ الوعي، فهل بوسعنا أن نتبع ذلك اَلنَّهج؟ هل بمقدورنا تأمل مشاعرنا وأفكارنا ببساطة وكأننا لم نعرفها من قبل؟ هل باستطاعتنا إلقاء نظرة غير مُتحيزة على كل ما يجري؟ ربما يمكنك أن تسأل حينها: ما تلك المشاعر أو الخبرات التي بإمكاني النظر إليها؟ وحينها سأجيبك على الفور قائلًا: تلك التي تمتلكها في اللحظةِ الراهنة، ربما يكون الأمر واضحًا بشدة ولكن علينا أن نعرف أن الأشياء الأكثر وضوحًا هي تلك التي نتغاضى عنها ونتجاهلها! فإذا لم يكن الشعور حاضرًا فأنت لست على دراية به، ومن ثَم فلن يكون هناك تجربة وخبرة راهنة، فأنت لا تعرف إلا ما تُدركه وتصبح على وعي به، وذلك هو ما يجري في تلك اللحظة الحالية وليس أكثر من ذلك، ولكن ماذا عن الذكريات؟ فنحن نعرف بالطبع أن طريق اَلتَّذَكُّر يمكنك من

معرفة ما مضى، كأن تتذكر مثلًا حادثة سير أحد أصدقائك في الشارع ولكن هذا لا يشكل وعيك الحالي لأنك لا تشاهد الحادثة بشكلٍ فِعلي ملموس الآن، فليس بمقدورك أن تذهب إليه أو تُصافحه بالأيدي، أو أن تحصل منه على إجابة لسؤالٍ نسيت أن تطرحه عليه في الوقتِ الماضي، وبعبارةٍ أخرى فأنت لا تنظر إلى الماضي الفعلي على الإطلاق لكنك تنظر إلى الآثار الفعلية الحاضرة لذلك الماضي، فالأمر أشبَه برؤية آثار طائر على الرمال، ومع أنني أرى تلك الآثار المطبوعة هناك بأم عيني فإنني في الوقت نفسه لا أرى تلك الطيور في أثناء إحداثها إياها منذ ساعة سابقة، لقد حلق الطائر بالفِعل لكني لا أراه الآن، فأنا لست واعيًا به، ولكن من خلال تلك الآثار المُتبقية قد علمت أن الطائر كان هنا، كذلك من خلال الذكريات يُمكنك أن تعرف أن تلك الأحداث قد وقعت في زمنٍ سابق لكنك لست على وعي بأي أحداث ماضية، فأنت تعرف الماضي فقط من خلال الحاضر وتعدّه جزءًا منه، ونحن نرى أن تجربتنا بأسرها مؤقتة فحسب، فمن ناحية كل لحظة موجزة ومن الصعب القبض عليها فما إن فكرنا فيها حتى تلاشت من بين أيدينا بغتةً، ومن ناحية أخرى يتعين علينا الاعتراف فقط بتلك اللحظة الراهنة التي بين أيدينا الآن فما من لحظاتٍ أخرى سواها.

إنها تحتضر على الدوام وتصبح ماضيًا بسرعة خاطفة لا يُمكن للمخيلة تصورها، وفي الوقت نفسه تُولَد وتتجدد وتتسم بالجدة، وتتحرك بسرعة عجيبة آتيةً من ذلك المجهول الكلّي الذي نطلق عليه اسم المستقبل، إن التفكير في هذا الأمر المُتناقض يحبس أنفاسك، فقولك إن التجربة مجرد مسألة مؤقتة يعني أنك تقول إن تجربة المرء ولحظته الراهنة الشيء نفسه، وأن تُقِر أن تلك اللحظة تحتضر وتتلاشى على الدوام وتصبح ماضيًا كما أنها تُولَد من جديد وتتجدد وتأتي من مصدرٍ مجهول فهذا بدوره ينطبق على سمات التجربة الحياتية ذاتها، فهذا يعني أن تجربتك التي تقوم بها التوّة سوف تتلاشى في القريب بصورة لا رجعة فيها، ولن يبقى لك إلا مجرد آثار في زمنك الراهن نطلق عليها اسم الذاكرة.

عندما يحاول المرء تخمين تجربته التالية فإنه يتعرض بدوره للفشل لأن هناك احتمالية حدوث أي شيء، على سبيل المثال: تلك التجربة التي تحدث له في اللحظة

الحالية هي مجرد مولود سيتلاشى تمامًا قبل أن يكبر في السن، ولكن هل سألت نفسك من قبل إن كنت واعيًا بشكلٍ كامل للحظتك الراهنة الحاضرة أم لا؟ هل راقبت ذاتك في أثناء القيام بتلك العملية؟ هل أخذت في الحسبان أنك تؤدي هنا دور ٱلْمُجَرِّب؟ فإذا قرأت تلك العبارة وفكرت في نفسك ستجد حينها أن عليك التوقف عن القراءة مدة ثانية من الزمن بعد استيعابك تلك الفكرة، فالتجربة الأولى هنا تتمثل في القراءة وتتمثل الثانية في التفكير أنك تقوم بفِعل القراءة الآن، فالخطوة الأولى هنا هي أنك تقرأ، والثانية هي أنك تُفكر أنك تقرأ، والثالثة هي أن تتوقف التوّة عن القراءة، فلا تدع سرعة تلك العملية تخدعك واضعةً إياك في هذا الشعور الذي يجعلك تفكر في الخطوات الثلاثة مجتمعة، لا تحاول أبدًا أن تفصل نفسك عن الفكرة الراهنة، فعلى سبيل المثال: عندما بدأت أولًا بالقراءة فإنك عندما فصلت نفسك وفكرت في فعلك هذا تَغيرت الفكرة وأصبحت تفكر في نشاطك السابق، وحينها تغيرت أيضًا وأدى ذلك إلى توقفك عن الفِعل، ومن هنا يمكننا أن نقول إنه لا يمكنك أبدًا أن تفصل نفسك عن التجربة دون أن تنتقل إلى أخرى.

الأمر برمته أشبه بالحلقة الوردية فعندما تفكر بينك وبين ذاتك قائلًا: ها أنا الآن أقرأ تلك العبارة فإنك في واقع الأمر لا تقرؤها! وفي كل تجربة راهنة أنت واع فقط بتلك التجربة فأنت لست واعيًا بكونك واعيًا! أنت غير قادر على فصل «ٱلْمُفَكِّر» عن «الفكرة» كما أنك لست قادرًا على فصل «العارِف» عن «المعرفة»، فكل ما تجده هو فكرة جديدة وتجربة جديدة، وحتى تكون واعيًا بالأفكار والمشاعر والرغبات وكل أشكال التجربة، لا يمكنك أن تكون واعيًا بأي شيء ينتمي إلى التجربة سواء أكان شعورًا أم كان فكرة عوضًا عن ذلك يمكنك فقط معايشة حالة ذلك المجرب أو المفكر أو مختبر الشعور، وهذا بدوره يجعلنا نتساءل ما الذي يجعلنا نعتقد بوجود شيء كهذا؟ ويمكننا الإجابة أن الأنا التي تؤدي دور ٱلْمُفَكِّر هنا تتجسد ماديًا في الجسد والعقل، ولا يمكن بأي حالٍ من الأحوال فصل الجسد عن الأفكار والمشاعر، فعندما تمتلك مثلًا شعورًا ما عن طريق اللمس فإنه يصبح جزءًا من جسدك، وعندما يمضي الشعور لا يمكنك تخليص جسدك منه فلا يمكنك أن تتخلص من الصداع أو من أحد أقدامك، يمكنك أن تتخلص ببساطة من كرسي ما غير مُريح لكن لا يُمكنك التحرر

من شعورك بالكرسي!

إن ذلك المفهوم الخاص بالمفكر المنفَصِل الذي تنأى فيه الأنا عن التجربة يتأتى من الذاكرة ومن سرعة تغيير الأفكار، فهو أشبه بدوران حريق العصي ليعطي الوهم باستمرارية دائرة النار، فلو كنت تتصور أن الذاكرة ما هي إلا معرفة مباشرة من الماضي بدلًا من تجربة الحاضر فأنت حينها تتوهم معرفة الماضي والحاضر في آنٍ واحد، وهذا يجعلك تفكر في أن هناك شيئًا داخلك بمنأى عن الزمن السابق والحالي، وهنا يفكر الواحد مِنا قائلًا:

- أعرف أن تلك التجربة تنتمي إلى الوقتِ الحاضر كما أني أدرك مدى اختلافها عن التجربة الماضية، فلو كان بمقدوري مقارنة التجربتين وملاحظة التغيير الذي طرأ، يمكنني حينها أن أصبح كيانًا ثابتًا ومستقلًا، ولكن في حقيقة الأمر لا يمكنك مقارنة تلك التجربة الحالية بالماضية، يمكنك فقط مقارنتها بذكرى الماضي التي هي جزء من تجربة الحاضر، فعندما ترى بوضوح أن الذكرى ما هي إلا شكل من أشكال اللحظة الراهنة ستعرف أن من المستحيل فصل نفسك عنها، فالأمر أشبَه بأن تجعل أسنانك تعض نفسها، هذه هي التجربة ببساطة، فما من شيءٍ ما أو شخصٍ ما يشهد عليها، ولا يمكنك أن تشعر أو تفكر بأكثر مما تراه وتسمعه وتشمه بالفعل، فمثلًا أن تقول «أشعر بأني في حالٍ جيدة» فهذا بدوره يعني أن هناك شعورًا جيدًا يُباغتك في اللحظة الآنية وهذا بالطبع لا يعني أن هناك شيئًا ما اسمه «الأنا»، وشيئًا آخر يحمل اسم الشعور الذي ينفصل عن الأول بدوره، وأن نجاحك في جمعهما معًا هو ما يجعلك تشعر بإحساسٍ جيد.

ما من شعور آخر سوى تلك المشاعر الراهنة، فما من سبيلٍ أبدًا إلى أن تحيا الأنا حالة من الانفصال عن تجربة الحاضر، فهذا الجدل الفلسفي في حد ذاته مجرد إهدار للوقت، فنحن لا نحاول هنا إدارة نقاش فكري لكننا نعلن وعينا الكامل أن أي حالة انفصال أو استقلالية تعيشها الأنا بعيدًا عن التجارب والأفكار هي محض وهم، وحتى نفهم ذلك ينبغي لنا أولًا أن نفهم جيدًا أن الحياة مؤقتة، وما من دوام أو أمان مُطلَق فيها، ولا يمكن لأي ذات أن تشهد حالة كُلية من الحماية.

هناك قصة صينية لأحد الرجال الذي ذهب إلى رجلٍ حكيم وقال له:

- أرجوك ساعدني على تهدئة عقلي، فأنا أحيا حالة من انعدام السلام.

حينها أجابه الحكيم قائلًا:

- أخرِج عقلك وأحضره أمامي وحينها يُمكنني أن أهدئه!

- لطالما بحثت عنه طيلة سنواتٍ طويلة لكني لم أجده، قالها الرجل.

- هذا تحديدًا ما نحن بحاجة إليه من أجل تهدئة عقلك!

إن السبب الرئيس وراء امتلاء حياة الإنسان بالإحباط والسخط ليس تلك الحقائق التي تُعرَف بالموت والمرض والخوف والألم أو الجوع، لكن الشيء الجنوني يتمثل في أن تلك الأشياء عندما تكون حاضرة يبذل الإنسان قصارى جهده مُحاولًا أن يدور ويتلوى من أجل إخراج الأنا من تلك التجربة، فنحن نتظاهر أننا كالأميبا، ونقوم بكل ما نملك من أجل محاولة حماية أنفسنا من الحياة عن طريق الانقسام إلى جزأين، فالعقلانية والكمال والاندماج تكمن في إدراكنا أننا لسنا منقسمين وأن الإنسان وتجربته الحالية ليسا أمرًا واحدًا، وليس من الممكن العثور على الأنا المُنفصلة أو العقل المُستقل، فالأمر مجرد وهم واضطراب وبسبب ذلك لا يوجد وعي أو فهم للتجربة وكذلك لا يوجد إمكانية حقيقية لاستيعابها.

يمكننا القول في هذا الصدد إن معنى أن يتفهم الإنسان تلك اللحظة الحالية وأن يُدركها هو ألا يُحاول أبدًا الانفصال عنها، فمن المفترض أن يكون واعيًا بها بكل كيانه، فالأمر ببساطة أشبَه بالإحجام عن حبس الأنفاس مدة عشر دقائق، ومع أن هذا أمر لا يتعين على الواحد مِنا فعله فإنه الشيء الوحيد الذي بمقدورنا فعله من الناحية الواقعية، فكل شيء آخر ما هو إلا محاولة عبثية لمُطاردة المستحيل.

حتى تستطيع فهم الموسيقى على سبيل المثال فإن عليك الاستماع إليها، ولكن إذا قلت لنفسك «ها أنا أستمع إلى الموسيقى الآن» فأنت في حقيقة الأمر لا تستمع إليها على الإطلاق! وحتى تتفهم الخوف أو المرح عليك ألا تنفصل عن الشعور، وأن تكون واعيًا بها كليًا بدلًا من أن تُطلِق عليها أسماء عدة وتقول لنفسك: «أنا سعيد» أو

«أنا خائف»، فهذا يعني أنك لست مُنفعلًا بالشعور، فالخوف والألم والحزن والملل تظل مشكلات إذا لم يستطع المرء أن يتفهمها بعقلٍ واحد غير مُنقسِم، وهذا بدوره بالطبع يعني ما رددته تلك المقولة القديمة الغريبة:

«سراج الجسد هو العين فمتى كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرًا».

تحدث الكاتب كريشنامورتي ثد أيضًا عن تعريف الوعي من هذا المُنطَلَق من خلال كتاباته التي استخدم خلالها أسلوب مُعالَجة غير عادي.

اللحظة الرائعة

إذا كنت تستمع الآن إلى أغنية ما دعنِ أسألك بشكلٍ مُباغِت:

- مَن أنت في هذة اللحظة؟

والآن أخبرني كيف ستجيب عن هذا السؤال بشكل مُباشِر وعفوي ودون التَوَقُّف من أجل البحث عن الكلمات المُناسبة؟ فإذا صدمك السؤال وأبعدك عن الاستماع سوف تُجيب بدندنة الأغنية على الفور، وإذا فاجأك ستجيب مُكررًا ما طرحته عليك مُتسائلًا:

- مَن أنت في هذة اللحظة؟

أما إذا توقفت لتفكر ستحاول إخباري بشيءٍ ما لا يخص لحظتك الراهنة على الإطلاق لكنه ينتمي بدوره إلى الماضي، على الأرجح سأحصل منك حينها على معلومات تخص اسمك وعنوانك وعملك وتاريخك الشخصي، ولكني سألتك مَن أنت الآن، وليس مَن ذلك الشخص الذي كنته في الماضي! فحتى تكون واعيًا بالواقع وباللحظة الراهنة عليك اكتشاف ما تدور حول تجربتك في كل لحظة زمنية فلا يوجد شيء آخر إضافي لذلك، ومن الغريب أيضًا أننا في أكثر لحظاتنا إدراكًا ووعيًا تلبس ذواتنا شعورًا مُحددًا بالبرودة أو الدفء أو الألم أو الانزعاج -يكون أقرب إلى حالة التوتر العضلي- في حقيقة الأمر أن ذلك الشعور الذي يحتل الذات حينها يخلو من أي معنى أو مغزى تمامًا كما أنه ليس بالإمكان أن يشم المرء أنفه أو أن يُقَبِل شفتيه، ومع أننا في أوقات السعادة والسرور نتأهب من أجل إدراك لحظتنا الحالية

ونستعد لأن نصبح على وعي كامل بها لنشهد التجربة بكل تفاصيلها فإننا في تلك اللحظات المُحددة ننسى أنفسنا تمامًا، وحينها لا يقوم العقل بأي محاولات من أجل فصل نفسه عن التجربة ولكن مع لحظة وصول الألم سواء أكان ماديًا أم كان عاطفيًا وسواء أكان فعليًا أم كان متوقعًا تبدأ تلك الحالة من الانقسام وتدور الدائرة بشكلٍ مفرغ لا جدوى منه، وعلى نقيض ذلك عندما يُدرك الإنسان بكل وضوح أن الأنا لا يمكنها الهرب من واقع الحاضر وأنها ليست أكثر مما تعرفه تتوقف تمامًا تلك الاضطرابات الداخلية، وما من إمكانية لتكون هناك أي بقايا، فقط سيصبح الواحد مِنا واعيًا بالألم والضجر والأسى بتلك الطريقة الكلية الكاملة نفسها التي يشعر بها في أوقات السعادة والفرح.

إن الجسم البشري يمتلك قدرات عجائبية هائلة تساعده على التكيّف لكلٍ من الألم المادي والنفسي، ولكن هذا يحدث عندما لا يكون الألم في حاجة مستمرة إلى هذا الإنعاش عن طريق الجُهد الداخلي لمحاولة الهروب منه حتى تنفصل الأنا عن الشعور الحالي، فحينها يخلق هذا الجهد المبذول حالة من التوتر يتغذى عليها الألم وبمجرد أن تنتهي يبدأ الجسد والعقل امتصاص الألم تمامًا كما تلك الطريقة التي يتفاعل بها الماء مع الجروح والصفعات.

هناك قصة أخرى لحكيم صيني سُئِل ذات مرة:

- كيف يمكننا الهروب من الحرارة؟

وكان المقصود بذلك حرارة المُعاناة بالطبع، وحينها أجاب قائلًا:

- اذهبوا مُباشرةً إلى مُنتَصف النيران!

- ولكن كيف يُمكننا الهروب من اللهيب الحارِق؟

- لأنه ما من ألمٍ قادم ينتظركم!

بالطبع نحن لا نود الوصول إلى هذا الحد الذي ذكرته قصة الصين، ولكننا أيضًا إذا تأملنا قصة «الكوميديا الإلهية» الشهيرة سنجد أن دانتي وفيرجيل قد اكتشفا أن السبيل الوحيد للخروج من الجحيم هو الوصول إلى مركزِها!

لقد اعتدنا ألا نفكر في مشاعرنا الحالية في أكثر اللحظاتِ شعورًا بالسعادة والبهجة، وبقاعدة عامة لا يقول الواحد مِنا لنفسه «أنا سعيد» أو «يغمرني الفرح في تلك اللحظة»، بصفة طبيعية اعتيادية لا نتوقف أمام تلك الأفكار إلا إذا تجاوز المرح قمة ذروته، كما أننا لا نُحاول إطلاق المسميات على تلك اللحظات على وجه التحديد لأن أي محاولات من شأنها الاستناد إلى مقارنة تلك التجربة بغيرها من التجارب، ولهذا السبب خاصةً نحن لا نُطلق عليها الأسماء لأنها مجرد هتافات مجردة تعتمد على المقارنات، فما مَيز الفرح عن الحزن هو المقارنة بين تلك الحالة الذهنية التي يمر بها العقل في الحالتين، وإذا لم نعرف الشعور بالفرح من قبل فلن نتمكن أبدًا من تعريف الحزن بالحزن.

لا يمكننا كذلك مقارنة الفرح بالحزن بشكلٍ واقعي ملموس فكل ما يحدث ببساطة هو مقارنة ذلك التحول السريع الخاطف بين حالتين عقليتين، فلا يمكنك الانتقال ذهابًا وإيابًا بين مشاعر السعادة والحزن كما تنتقل بعينيك بين القطة والكلب، فلا يمكن مقارنة الحزن إلا بذكرى الفرح الذي يختلف بدوره تمامًا عن الفرح الفِعلي المحسوس، فالذكريات كما الكلمات لا تنجح أبدًا في تصوير الواقع، فالمقارنة ممكنة فقط بين الذكريات لأنها مُجرَدة، فأنت تمتلك الإحساس بمعرفة الأشياء لكنك لا تعرفها على أرض الواقع، فالذاكرة لا يمكنها تجسيد الجوهر كما أنها لا تُرَكز على آنية التجربة لكنها عوضًا عن ذلك تُحضِر لك «جُثَة التجربة» التي تلاشت منها الحياة.

إن ما نعرفه عن طريق الذاكرة ما هو إلا مجرد ذكريات بالية رديئة ميتة لأنها ثابتة، فستظل ذكرى جدتك المتوفاة مثلًا تتردد في رأسك، وسيمتلأ رأسك بكلماتها التي اعتادت قولها في الماضي، لكن جدتك الحالية بمقدورها دائمًا أن تقول أو أن تفعل شيئًا جديدًا وحينها لن تستطيع تخمين الخطوة التالية التي ستقدم بدورها على فعلها في القريب، وبناءً عليه فهناك طريقتان لفهم التجربة الحالية، أما الأولى فتتمثل في مقارنتها مع ذكريات التجارب الأخرى، ومن ثَم أن تعرّفها وتطلق المسميات عليها وهنا سيتعين عليك تفسيرها وترجمتها في ضوء ثوابت الماضي الميت، أما الطريقة الثانية فهي أن تكون واعيًا تمامًا بلحظتك الراهنة، ففي أوقات

فرحنا الشديدة ننسى كُليًا الماضي والمستقبل ونكون حاضرين فقط في تلك اللحظة التي هي بين أيدينا الآن، ولا نتوقف حتى للتفكير بشأن الأمر فلا تجد الواحد منا يهمس لنفسه قائلًا: ها أنا سعيد الآن، لكل من تلك الطرائق استخداماتها الخاصة ولكنها تعتمد على معرفة الشيء عن طريق الإشارة إليه بالكلمات أو معرفته بشكلٍ فوري مُباشر، فالقائمة مفيدة لكنها ليست بديلًا عن وجبة العشاء، تمامًا كما يعد الكُتيب الإرشادي أداة مذهلة رائعة لكن لا يمكن مقارنته أبدًا بتلك البلدة التي يصفها! فالأمر هنا ببساطة أننا إذا حاولنا فهم الحاضر عن طريق مقارنته بالذكريات فلن نفهمه بعُمق كما لو كنا واعين به دون الاستناد إلى المقارنة، فتلك هي الطريقة التي نتعامل بها مع التجارب غير السارة فبدلًا من أن نكون على وعي وإدراك بها نحاول التعامل معها في ضوء الماضي، فالشخص الوحيد أو الخائف يبدأ على الفور التفكير قائلًا: «أنا خائف»، أو «أنا وحيد»، وهذا بالطبع هو محاولة لتجنب تلك التجربة فنحن لا نرغب في إدراك الحاضر ولكننا في الوقت نفسه غير قادرين على الخروج منه، فهروبنا الوحيد سيكون بالتوجه إلى خزانة الذكريات، هناك حيث نشعر بأننا في مكانٍ آمن لأن الماضي ثابت، ولأننا نفسر الحاضر وفق تلك القوالب الثابتة التي ينتمي إليها ما سبق، فنحن نميل إلى التعامل مع حاضرنا بناءً على ما نعرفه وما مررنا به، بعبارة أخرى نحاول أن نتكيف مع الحاضر الغامض عن طريق مقارنته بتلك الأحداث الماضية التي عرفناها وسميناها وتذكرناها.

ربما تكون تلك الطريقة مُجدية عندما تود حقًا الهرب من شيءٍ ما، ربما تُثبِت صحتها عندما تُنقذك من خطرٍ ما، فهي عملية نافعة في حالة إذا استخدمتها من أجل الابتعاد عن الأمطارِ الغزيرة أو شيء آخر مُنفصل عنك ولكن كيف يمكنني اتباع تلك السياسة عند التعامل مع أشياء تخصك وتعد جزءًا منك؟ فجسدك مثلًا لا يمكنه التخلص من السموم عن طريق معرفة أسمائها، فأن تحاول السيطرة على الخوف أو الاكتئاب أو الملل عن طريق إطلاق المسميات عليها أشبَه باللجوء الساذج إلى التعاويذ واللعنات.

فمن السَهل للغاية أن يرى المرء بنفسه لماذا لا يعمل ذلك الأمر، فنحن بوضوح نحاول تعريف الخوف وتحديده من أجل جعله ماديًا وأن ينفصل بدوره عن الأنا،

ولكن علينا هنا أن نسأل لماذا نبذل قصارى جهدنا من أجل الانفصال عن الخوف؟

الإجابة لأننا خائفون، أو بعبارةٍ أخرى إن الخوف يُحاول الانفصال عن ذاته كما لو كان من المُمكن للمرء مُحاربة النار بالنار! وهذا ليس كل شيء، فكلما اعتدنا فهم الحاضر في ضوء ذكريات الماضي، حاولنا استيعاب ذلك غير المجهول بالمجهول، كلما استبدلنا تلك اللحظات الميتة المُتلاشية بتلك الحية النابضة أصبحنا أكثر تيبسًا وأقرب إلى الصور المُحنَطَة، وباتت حيواتنا مُثيرة للإحباط والحزن والأسى خالية من المرح، فكلما حاول الإنسان أن يحمي نفسه من الحياة أصبح كالرخويات التي تُغطيها قشرة «العادة» الصلبة، وفي تلك اللحظة التي ينفجر فيها طوفان المخاوف المكبوتة يمضي قدمًا بكل جموح، على الجانب الآخر فأنت على درجة من الوعي بالخوف، وأنت تُدرك ذلك لأن الإحساس يتلبسك والهرب منه أمر مستحيل للغاية، فعندما يلمسك تطلق عليه اسم الخوف، ومع أنك لا تعرفه بَعد فإنك تُسارع على الفور إلى مقارنته بالذكريات، فليس لديك أي خيار آخر سوى أن تُعايش التجربة الجديدة بكل كيانك.

عندما يتحلى المرء بتلك الروح سيتمكن من عيش كل لحظة جديدة كما أنه سينفعل بها في خضم تلك الأحداث الحديثة غير المعلومة، وعندها سيصل إلى تلك المرحلة التي ستمكنه من استقبال التجربة دون أن يضطر إلى مقاومتها أو تسميتها، وحينها فقط سينتهي ذلك الصراع بين الأنا واللحظة الحاضرة.

يحيا معظمنا تلك الحالة من النزاع الداخلي الذي لا يهدأ، فنحن نحاول على الدوام مقاومة «المجهول» كما أننا نهرب من اللحظة الراهنة الآنية تلك التي توشك أن تصبح شيئًا موجودًا بالفعل، فالعيش على هذا النحو لن يُمكننا أبدًا من تحقيق أغراضنا، ففي كل لحظة نشعر بالحذر والتردد، ونقوم باستمرار بتلك الوضعية الدفاعية، ومع ذلك تذهب كل جهودنا بلا جدوى لأن الحياة تُوجهنا إلى المجهول طوعًا أو كُرهًا، وهنا تعد مسألة المقاومة أمرًا هشًا مُحبطًا فهي أشبَه بالسباحة ضد الطوفانِ الهادر.

أن يكون لديك فن عيش هذا «المأزق» هو السبيل الأمثل الذي لن يجعلك تنجرف

إلى مخاوف الماضي الذي يُشكِل الجانب المعلوم، وعندها ستصبح حساسًا جدًا لكل لحظة تعيشها وسينفتح عقلك لكل شيء جديد فريد يستقبله، هذة ليست نظرية فلسفية لكنها تجربة، فعلى المرء أن يقوم بالتجربة حتى يفهمها إذ إنها المسؤولة بدورها عن منحك قوى جديدة للتكيف مع الحياة، فهي حقًا تعد بمنزلة الامتصاص والاستيعاب الحرفي للألم والشعور بعدم الأمن، فمن الصعب أن نصف كيف تعمل تلك العملية تمامًا كما يتعذر تفسير كيف يدق قلب أحدهم، أو مسألة تكوين الجينات الوراثية.

يعمل العقل المنفتح تمامًا بتلك الطريقة التي يتنفس بها معظمنا دون الحاجة إلى إعطاء أي تفسير على الإطلاق، إن مبدأ الشيء كلعبة الجودو الرياضية، فكلمة الجو تعني الرقيقة اللطيفة وكلمة الدو تعني الطريقة، ومن هنا فالمصطلح يعني الطريقة اللطيفة لإتقان القوة المُعارضة عن طريق الاستسلام لها، وتمنحنا الطبيعة أمثلة كثيرة لا حصر لها لكفاءة تلك الطريقة وفاعليتها، فقد أشارت الفلسفة الصينية إلى تعبير الجودو هذا من خلال ما ذكرته الطاوية عبر الإشارة إلى قدرات الماء على تجاوز العقبات عن طريق رقتها ومرونتها، فهي تكشف أيضًا كيف تتمكن شجرة الصفصاف الرقيقة من النجاة عبر العواصف الثلجية، ففي الوقت الذي تتصدع فيه تلك الأغصان الثابتة وتنكسر تنحني الأغصان الربيعية لشجرة الصفصاف وتجرف الثلج ثم تقفز مُجددًا إلى الوراء تمامًا كتلك الطريقة التي تسبح فيها عندما يُمسِك بك تيار قوي جدًا، فحينها تجد أنه من المُميت أن تقاوم ذلك، ولكن بدلًا من هذا ينبغي لك أن تسبح في اتجاهه حتى تصل إلى أحد الجانبين تدريجيًا، فإذا سقط أحدهم من ارتفاعٍ شاهق بأطراف متصلبة فهو معرض في تلك الحالة إلى كسرها ولكن إذا سقط مسترخيًا كالقط فإنه سوف يسقط بأمان.

إن ذلك المبنى الذي يفتقر إلى وجود أساسات في بنائه الخاص ينهار بسهولة شديدة إذا باغته زلزال أو عاصفة ثلجية تمامًا كتلك السيارة التي لا تشتمل على إطارات وعجلات فإذا بها تتفكك على الطريق، فالعقل يمتلك القوى نفسها وبناءً عليه فإنه باستطاعته أن يُسَبب الصدمات أو يمتصها تمامًا كالمياه وإطارات السيارة.

ما نود قوله هنا إن الاستسلام لتلك القوة المُعارضة لا يعني الهرب بعيدًا عنها، فالجسم المائي لا يمكنه الهرب عندما تدفعه لأنه ببساطة يُحاصرك ويُحيط بيديك، فتلك الأداة المُخصصة لامتصاص الصدمات لا تسقط إلى الأسفل كأخشاب البولينغ عندما تُضرب لكنها تظل في المكان نفسه، فالهرب بعيدًا هو الطريقة الدفاعية الوحيدة لشيءٍ جامد صلب ضد قوة طاغية، وبناءً عليه فإن أداة امتصاص الصدمات الجيدة ليست القادرة فقط على المَنح لكنها القادرة كذلك على حفظ التوازن، تلك المهمة تعد إحدى وظائف العقل وتظهر كثيرًا خلال هذة الظاهرة غير المفهومة للكسل، فمن الواضح بشكلٍ كاف أن الأشخاص العصبيين والمُحبطين مشغولون على الدوام حتى في أثناء عطلاتهم لأنها تكاسل عن الشعور بالخوف وليست من أجل الراحة والاسترخاء، لكن نظام الجسد والعقل يحافظ على الطاقة ويؤدي إلى تراكمها، وعندما تُخزن الطاقة يكون من السعادة التحرك والمضي قدمًا بشكلٍ أكثر مهارة بأقل قدر من المقاومة.

يُمكنني القول إن الحاجة ليست أم الاختراع وحدها فالكسل أيضًا يؤدي الدور نفسه! يمكننا ملاحظة تلك الحركات الثقيلة المتأنية لأحد العُمال الماهرين في أثناء إنجازه مهمة شاقة، فقد يصل الأمر إلى السير عكس الجاذبية، فمُتسَلِق الجبال الجيد يعرف كيف يستخدمها وكيف يتخذ خطوات بطيئة وواسعة ثم يصل إلى المُنحَدَر كالقارب الذي يسير في عكس اتجاه الريح، وفي ضوء تلك المبادئ كيف بإمكان العقل استيعاب المعاناة وامتصاصها؟ لقد تَبين أن المقاومة والهروب ما هي إلا حركة زائفة كما أن الألم هو أمر حتمي والمقاومة ما هي إلا وسيلة دفاعية تزيد الأمر سوءًا، فالنظام بأكمله تُحركه الصدمة.

يجدر بنا القول إن معنى أن تظل مستقرًا هو أن تحاول منع نفسك من الانفصال عن الألم لأنك تعرف جيدًا أن ليس باستطاعتك ذلك، فالهرب بعيدًا عن الخوف هو خوف في حد ذاته ومحاربة الألم هو ألم أيضًا، وسعيك إلى أن تكون شجاعًا يعكس مدى خوفك، فإذا كان العقل يتألم فهذا يعني أنه سوف يستحيل مصدرًا أصيلًا للألم، ولا يمكن للمُفكر الانفصال عن أفكاره، لا مهرب من ذلك، وفي تلك اللحظة التي لن تكون واعيًا بلحظة الانفصال بين المُفكِر والفكرة ستحاول الهرب بكل السُبل، ومن هنا

تحديدًا تحدث عملية الامتصاص والاستيعاب بشكلٍ طبيعي.

عندما نرى أنه ما من مهرب من الألم تمتثل عقولنا وتستسلم وتصبح واعية فقط بالشعور به دون ترجمته إلى تلك العبارات المعتادة التي يقول فيها المرء: «أنا أشعر بالألم» أو «أنا أقاومه»، بل نتعامل معها تمامًا بتلك الطريقة غير الواعية التي نتعامل بها مع التجارب السارة، فالألم أصبح يُمثل طبيعة تلك اللحظة الحالية، ونحن لا يمكننا إلا أن نعيش من خلال الوقت الراهن.

ففي بعض الأحيان ينتهي الألم تمامًا أو يتضاءل إلى الحد المسموح به، وفي أوقاتٍ أخرى يبقى لكن غياب المقاومة يُحضِر شعورًا غير مألوف من الألم الذي يتعذر وصفه، فالألم تدريجيًا لم يعد يصبح إشكالية فعندما نعترف لأنفسنا بوجوده لم يعد هناك دافع للتخلص منه، حينها فقط نكتشف أن الألم والرغبة في الانفصال عنه هما الشيء نفسه، فالرغبة في التخلص من الألم تعني الألم، فقط عندما ندرك ذلك تتحول الرغبة في الهرب إلى شعورٍ تجسيدي بالألم، ومن ثَم تجده يختفي نهائيًا ويتلاشى مُتفاعلًا معها في نهاية المطاف.

يجب أن تعرف عزيزي القارئ أن تخفيض تناول أقراص الأسبرين لن يُمكنك من إزالة الصداع بعيدًا عن رأسك تمامًا كتلك السهولة والسرعة التي تبعد بها يدك عن لهيب النار، فعندما تدرك أنك مصدر الألم الأساسي سيتوقف الأخير عن تأدية دور المُحفز، ونتيجةً لذلك ستكتشف أن ما من شيء في انتظار إزالته.

أعرف أن الأمر مؤلم حقًا، ولكن عليك أن تعرف أنه لا يُمكنك التعامل مع تلك التجربة بوصفها مخزونًا تحتفظ به لاستخدامه خدعةً في أوقاتِ الأزمات لكنها طريقة لعيش الحياة بكل صورها، وعليك أن تبدأ من تلك اللحظة على الفور، وأن تعرف أن ما من خيارٍ آخر لتصبح واعيًا بتلك اللحظة إذ لا يمكنك فصل ذاتك عن الحاضر ولا يمكنك تعريف لحظتك الآنية، يمكنك أن ترفض تقبل ذلك في بداية الأمر لكن هذا سيكلفك ثمنًا هائلًا عندما تعرف أن هناك طريقتين فقط لعيش الحياة، فإما أن تقاوم التيار في حالة من الذعر وإما أن تفتح عينيك على عالم جديد تتحول خلاله بأعجوبة.

إن مفتاح ذلك هو أن تفهم وأن تسأل كيف بالإمكان فعل هذا الأمر وما الأسلوب أو الطريقة وما الخطوات أو القوانين، فالوسائل مُصَممة لخلق الأشياء غير الموجودة بعد، فما يقلقنا على الدوام هو فهم اللحظة الحالية، وهذا ليس انضباطًا نفسيًا وروحيًا من أجل التحسين الذاتي. من السهل أن يكون المرء واعيًا باللحظة الراهنة وأن يدرك أن ليس باستطاعته تعريفها أو فصل نفسه عنها، ليست هناك قاعدة مُحَددة، والمسألة ليست مجرد حالة شاعرية بحتة، فعندما يفتح الإنسان عقله على ما حوله يرى عالمًا جديدًا تمامًا كما لو كان اليوم الأول لبداية الخَلق عندما تُغني نجوم الصباح معًا ويبتهج أبناء الرب.

فعندما نحاول أن نفهم كل شيء يُحيط بنا بناءً على قواعد الذاكرة والماضي ومن خلال سِعَة الكلمات نقضي معظم أيام حيواتنا ندفن أنوفنا داخل الكُتيب الإرشادي دون أن ننظر مثلًا إلى وجهة النظر التي أثارها ألفريد نورث وايتهيد عن نقد التعليم التقليدي حول طريقتنا الكُلية لعيش الحياة، فنحن لدينا حالة من الولع والهوس بالكتب فقط خلال مدد دراستنا التعليمية.

إن آدم رأى الحيوانات أولًا في جنة عدن ثم بدأ تسميتها لاحقًا لكننا في النظام التقليدي العادي نُعَلِم الأطفال كيف يطلقون الأسماء على الحيوانات قبل رؤيتها! فأن تسمي كلمة ما بالمعنى الواسع يعني أن تقدم لها تفسيرًا أو ترجمة طبقًا لأحكام الذاكرة والماضي، وأن تربط ذلك المجهول بالنظامِ المعروف، فالإنسان المُتحضر لا يعرف أي طريقة أخرى لفهم الأشياء سوى أن يُوضع مُلصَق تعريفي لكل شخص وكل شيء وأن يُزود برقم وشهادة وتسجيل وتصنيف، مع مراعاة أن تلك الأشياء غير المُصَنفة غير منتظمة وخطرة ولا يمكن التنبوء بها، فدون وجود جواز سفر وشهادة ميلاد وجنسية وشهادة عضوية تنتمي من خلالها إلى إحدى الأمم والبلدان لا يمكن الاعتراف بوجود المرء!

وإذا لم تتفق مع الرأسماليين سيطلقون عليك اسم «شيوعي» والعكس بالعكس، كما أن الشخص الذي لا يتفق مع وجهتي النظر سرعان ما يصبح في نظر الجميع شخصًا غير مفهوم وغامضًا، وهناك طريقة للنظر إلى الحياة بعيدًا عن المفاهيم

والمعتقدات والآراء والنظريات التي هي أبعد ما تكون عن العقل العصري حتى أن أحدهم إذا تبنى ذلك المبدأ سيصفه الجميع بأنه شخص أحمق معتوه، فنحن نُعاني بشدة وهمًا واضحًا يتمثل في أن هذا الكون يُدار طبقًا لتصنيفات الفكر البشري ونحن نخشى عندما لا نمتثل تلك التصنيفات ونتمسك بها بإصرار سيتلاشى كل شيء إلى فوضى.

ينبغي أن نُكَرر أن الذاكرة والفكرة واللغة والمنطق هي أشياء جوهرية ضرورية لحياة البشرية، فهي نصف العقل على وجه التحديد ولكن علينا أن نعلم أن الإنسان أو المجتمع نصف العاقل غير عاقل! فأن تتأمل الحياة دون كلمات لا يعني على الإطلاق أن تفقد القدرة على تشكيل الكلمات، أو أن تفكر أو أن تتذكر أو أن تُخَطط، فأن تكون صامتًا لا يعني أن تفقد لسانك، على النقيض فمن خلال الصمت وحده يمكن للإنسان أن يكتشف شيئًا جديدًا ليتحدث عنه، فالشخص الذي يتحدث دون الحاجة إلى ذلك ودون أن يتوقف لينظر ويستمع يُكَرر نفسه إلى حَد المَلل، والأمر ذاته مع التفكير الذي يعدّ في حقيقة الأمر حديثًا صامتًا! فالعملية لا تفتح أمامنا فقط عوالم جديدة لكنها تربطنا بالعوالم القديمة والأفكار أيضًا.

في وقتٍ من الأوقات كانت اللغة تُثرى بالمزيدِ والمزيدِ من الكلمات الجديدة- في ذلك الوقت الذي شاهد الناس -تمامًا مثل آدم- الأشياء قبل أن يتمكنوا من تسميتها، ولكن الآن نجد أن كل الكلمات الجديدة ما هي إلا ترتيباتٌ وتحديثات من الكلماتِ القديمة، ومن ثَم فنحن لم نعد نُفكر بشكلٍ إبداعي خلاق، وما أعنيه بقولي هذا هو أن علينا جميعًا أن نتوصل إلى عددٍ من الاختراعات والاكتشافات الثورية، فهذه دائمًا هي القوة النادرة التي يتمتع بها أولئك الذين تمكنوا من رؤية المجهول وتفسيره، بالنسبة إلى معظمنا فإن نصف هذا التَعَقُل يتمثل في رؤية المجهول والاستمتاع به تمامًا كما يمكننا الاستمتاع بالموسيقى دون أن نعرف كيف كُتبت وكيف يسمعها الجسد؟

من المؤكد أن على المفكر الثائر تجاوز أفكاره، فهو يعرف جيدًا أنه قد عثر على معظم أفكاره عندما توقف عن عملية التفكير! ربما عانى كثيرًا في بداية المطاف

ليتفهم المشكلة في ضوء طرائق التفكير القديمة وكاد يجد الأمر مستحيلًا لكنه تمكن من تحقيق ذلك في تلك اللحظة التي توقف فيها عن إنهاك عقله وإرهاقه، وبات الأخير مُنفتحًا لرؤية المشكلة على حقيقتها كما هي -وليس كما يُعبر عنها لفظيًا- ثم وجدها مفهومة للغاية في نهاية المطاف.

علينا أن نعرف جيدًا أن تجاوز أفكارنا ليس مسألة قاصرة على العباقرة فقط، فبإمكاننا جميعًا فعلها فقط إذا لم ننظر إلى غموض الحياة بعدّه مشكلة بحاجة إلى حل، ولكنها واقع بحاجة إلى الاختبارِ والتجربة، فهناك الكثير من الفرص التي يمنحها الكون لنا حتى نكون مُبصرين وهناك فرص أقل لأولئك ممن يُختارون ليكونوا أنبياء، فهناك الكثير من الناس الذين يستمعون إلى الموسيقى وهناك عدد قليل ممَن يستطيعون العزف والتلحين ولا يستطيعون الاستماع استنادًا إلى أحكام الماضي وقواعده، فما الذي يمكننا فعله بسيمفونيات موتسارت إذا كانت آذاننا منسجمة فقط مع صوت الطبول الصاخبة؟ ربما قد نعرف الإيقاع ولكننا لن نلتفت إلى اللحن ولن ننسجم معه، بعبارةٍ أخرى من المؤكد أننا سنفشل في اكتشاف أحد العناصر الجوهرية المهمة في الموسيقى، فحتى نكون قادرين على الاستماع ناهيك بالكتابة على رجال الموسيقى أن يكتشفوا أصواتًا أخرى أكثر إزعاجًا من تلك السيمفونيات السالفة الذكر حتى تتوافق معنا، فعليهم أن يخترعوا أصوات اهتزازت وترية عنيفة أقرب إلى صوت أنابيب الهواء أو أزيز الأسلاك العارية أو أي أصوات أخرى تجعل العالم أشد ضجيجًا على أن تكون جميعها أصواتًا لا تتوافق مع إيقاع النبض.

إذا استطعت مثلًا تَصور النبض بوصفه فكرة مُجَردة لما كان باستطاعتي تقدير النغمة الموسيقية، ولو كنت أفكر أن الرسم ما هو إلا طريقة لصناعة المزيد من الصور الملونة الفوتوغرافية دون كاميرا لما استطعت أن أرى إلا حماقة لوحات المناظر الطبيعية الصينية وعبثيتها على سبيل المثال، لا يمكننا أن نفهم أي شيء بناءً على ضوابط الماضي وتجربته، فلو كان من الممكن فهم كل الأشياء وفقًا للضوابط التي نعرفها بالفعل لأمكننا نقل الإحساس باللون إلى شخص أعمى عن طريق الصوت واللمس والتذوق والشم، فإذا كان هذا أمرًا صحيحًا في العلوم والفنون فإنه أيضًا

ينطبق على طريقة فهم الحياة بحسٍ أوسع، ويجعلنا نتعرف إلى الواقع المطلق أو الإله.

من السخيف حقًا أن نبحث عن الإله من خلال فكرة مُتَصورة مُسبقًا عنه، فأن نبحث على هذا النحو يعني أننا سنجد ما نعرفه بالفعل ولهذا يخدع المرء نفسه بسهولة ويسقط في أوهام التجارب والرؤى الخارقة للطبيعة، فأن تؤمن بالإله وتبحث عنه في الوقت نفسه يعني أن تبحث عن تأكيد لرأيك، إنك تود الكشف عن إرادة الرب واختبارها عن طريق إخضاعها لمعاييرك الأخلاقية المُتَصورة سلفًا، هذا في حد ذاته يعكس حالة تَهكم وسخرية من السؤال، فأنت تعرف جيدًا أن بحثك عن الإله بتلك الطريقة لا يعني إلا طلبك التصديق بالختم الرسمي على حقيقة ويقينية ما نؤمن به على أي حال، فنحن نبحث عن ضمانٍ دائم من شأنه أن يؤكد لنا أن ذلك المستقبل المجهول سيكون بدوره امتدادًا لما احتفظنا به في الماضي، أي أنه سيصبح ذاك الحِصن الأكثر ضخامة وأمانًا، فلو أننا انفتحنا فقط على تلك الاكتشافات التي تتوافق مع ما نعرفه بالفعل لأصبحنا مُنغلقين على أنفسنا بالمعنى الحرفي للكلمة، ولهذا السبب على وجه التحديد تعد إنجازات العلم والتكنولوجيا ذات فائدة قليلة غير مُجدية بالنسبة إلينا، فمن العبث القول إن باستطاعتنا التنبؤ وَالتَّحَكُّم في مسار الأحداث المستقبلي ما دمنا لا نعرف كيف نعيش في الحاضر! ومن السخيف أيضًا أن يطيل الأطباء أعمارنا من أجل قضاء وقت إضافي لنتدثر خلاله باللهفة لأن نعيش حياةً أطول، ومن الحمق كذلك الاعتقاد أن المهندسين سيبتكرون وسائل سفر أسهل وأسرع إذا تأملنا المشاهد الجديدة في ضوء القواعد والأحكام المعروفة سَلفًا، ومن غير المُجدي الاعتقاد أننا سنحصل على قوة الذرة إذا كنا نواصل شبقنا في تفجير الناس، فأدوات كهذه تمامًا كأدوات الفكر واللغة ذات فائدة حقيقية فقط لأولئك الذين يتحلون باليقظة وليس لأولئك الضائعين في أرض الأحلام المأهولة بأشباحِ الماضي والمستقبل، يمكننا القول إن تلك الفئة التي تختبر الحاضر وحدها القادرة على الشعور باللحظةِ الراهنة، أولئك مَن يشعرون حقًا بتدفق الحياة وحيويتها النابضة كما أنهم يمتلكون تلك القدرة النادرة على تأمُل أعماقها التي نبدأ بالكاد اكتشافها، وحتى يُمكننا فهم كل ذلك على العقل أولًا وقبل كل شيء

ألا يعيش حالة من الانقسام بين الأنا والتجربة الحياتية الراهنة، ينبغي أن تكون اللحظة كما هي دومًا فما من مكان لتلك الحالة من الانفصال كما وضحنا سلفًا.

تَحول الحياة

يتوهم الرجل الأبيض نفسه شخصًا براغماتيًا عمليًا يرغب دائمًا في الحصول على النتائج، فتجده يتعامل مع أي نظرية أو نقاش بحالة من نفاد الصبر ما لم تؤد على الفور إلى تطبيقاتٍ ملموسة، ولهذا السبب بإمكاننا وصف سلوك الحضارة الغربية بشكلٍ عام بأنه «الكثير من اللغط حول لا شيء». والمعنى الدقيق لذلك هو الانهماك في التكهنات غير المُجدية دون وجود رؤية حقيقية للموقف، وهذا ينطبق بدوره على ما قيل في السابق «يهلك الناس عندما تنعدم الرؤية»، لكن تلك الأخيرة لا تعني عوالم الأحلام والمبادئ والمُثل العُليا الخاصة بالمستقبل لكن المقصود بها فهم الحياة كما هي، وكذلك أن نفهم ذواتنا وما نحن بصدد فعله وأن نُدرِك جيدًا أننا دون تفهم ذلك فمن العبث أن نتحدث عن كوننا أشخاصًا عمليين ننشد الحصول على النتائج، فالأمر ببساطة أشبَه بالمشي وسط الضباب، فأنت تستمر في الدوران دون أن تعرف إلى أين ستذهب؟ تواصل حركتك دون أن تملك أي فكرة عن تلك النتائج التي يمكنك الحصول عليها.

أعرف أن هذا الأمر الذي ناقشناه التوّة قد يبدو نظريًا بالنسبة إلى العقول التي تفكر على هذا النحو، فستجد الواحد منهم يتفوه قائلًا: حسنًا هذه أفكار جيدة جِدًا ولكن هل تُجدي فعلًا؟ وهنا يتعين عليّ أن أسأل على الفور ما الذي تعنيه بسؤالك هذا؟ فمن المعروف مثلًا أن أي فلسفة تخضع لاختبار عمل سريع للتأكد إن كانت قد ساهمت في جعل الناس أفضل وأسعد، وكذلك لمعرفة إن كانت نتائجها قد أسهمت في تحقيق السلام والرخاء المنشودين لكن العملية برمتها تصبح غير مُجدية على الإطلاق دون إدراك للمفهوم النظري، فما الذي تعنيه بالسعادة؟ وما الأمر الأكثر جدوى للأشخاص الأفضل؟ وهل ستتعاون في ذلك؟ وما الذي سوف تفعله عندما تنعم بحالة من السلام والرفاهية؟

إن إجابة تلك الأسئلة تتوقف على طريقتنا لتعريف أنفسنا وما نحن بصدد فعله

في الوقتِ الحالي، فإذا كنا نرغب في الحصول على السلام والعُزلَة في الوقت نفسه كأننا أردنا الشعور بالأخوة والأمان والسعادة الدائمة من أجل إرضاء الأنا لأصبحت احتياجاتنا ورغباتنا مُتعارضة مُتناقضة، ومع أن النتائج ربما تكون عملية فمن المُحتَمل أن تشهد حالة مستمرة من التناقض والتضارب، الأمر أقرب إلى تلك القصة القديمة ذاتها التي تخص الرغبة في الحصول على كعكتك وتناولها، وبناءً عليه فإن الاستنتاج الوحيد المُمكن هنا أن تضعها في معدتك وتُبقي عليها حتى تُصاب بعُسر هضم، فإذا أردنا أن نكون قوميين ونفرض سيادتنا على المنطقة فمن المفترض ألا نتوقع أن يشهد العالم حالة من السلام، وإذا أردنا أن نحصل على كل شيء بأقل تكلفة لا يمكننا أن نتوقع تحقيق ذلك بجودة عالية، فالتوازن بين الأمرين يخلق نوعًا من الرداءة والضعف، وإذا كنا مثاليين من الناحية الأخلاقية يجب علينا في الوقت نفسه ألا ننسى مسألة الاستقامة الذاتية وإذا تشبثنا بالمعتقدات فلا يمكننا أن نشعر بالإيمان لأن معنى الأخير لا يرتبط بفكرة التشبث لكنه يتعلق بمفهوم الاستغناء والتخلي، فعندما نُدَرب أنفسنا على التفكير فيما نريده فحسب تظل هناك تلك المشكلات العملية والتقنية، لكن ما من فائدة على الإطلاق من مناقشة ذلك الأمر حتى نرمم أولًا عقولنا، وما من سبيلٍ حقيقي لذلك ما دمنا نحيا تلك الحالة من الانقسام الواضح بين الأنا والتجربة الآنية، فإذا أدى العقل دور القوة الموجهة خلف الأحداث ستتضح الرؤية لاحقًا قبل أن ينشأ أي صراع.

إن تلك الرؤية الواضحة التي يُصاحبها وعي كامل تشترط أن تخضع نظر المرء للعالم حوله إلى تَحول جذري، فكما تصف الكلمات كلمة التحول بأنها هذا التعبير الذي يتألف أساسًا من المعرفة والشعور وتُقِر أن العالم ما هو إلا وحدة عضوية ومع أننا نعلم صحة ذلك من الناحية المعلوماتية فإننا لا نشعر بأن الأمر صحيح. من المؤكد أن معظم الناس يشعرون بالانفصال عن كل شيء يحيط بهم، ففي إحدى الجهات تقبع النفس، وفي الجهة الأخرى توجد بقية الكون ويشعر حينها الواحد مِنا من هذا المُنطَلَق بأنه ليس متجذرًا في الأرض كما الشجرة، ولكنه يتنقل باستقلالية في الأرجاء، ونشعر وكأن أنوفنا مركز كل شيء ثم يُداهمنا الإحساس بالوحدة والعُزلَة بغتةً، فباستطاعتي كوني إنسانًا أن أشعر بما يحدث داخل جسدي لكن

ليس باستطاعتي أيضًا إلا تخمين ما يحدث داخل أجساد الآخرين، وها هو ذا عقلي الواعي يتجذر بعُمق داخل أعماق الوجود الهائلة السحيقة التي لا يمكن سَبر أغوارها ثم يشعر بغتةً بأنه يحيا بمفرده داخل جمجمة صغيرة ضيقة مع أن الواقع الفيزيائي يقول إن جسدي يرتبط ماديًا بذلك الكون، فأنا أرتبط به وأعتمد عليه ويمكنني القول إن تلك العلاقة الوثيقة الناشئة بيننا تمامًا كما علاقة الورقة والشجرة الأم.

يشعر الواحد مِنا بالعُزلَة نتيجة لتلك الحالة من الانقسام التي يحياها داخله لأننا نحاول الانفصال عن مشاعرنا وأحاسيسنا، وبالتالي يصبح كل ما أحس به وأستشعره غريبًا بالنسبة إليّ، ولكن في تلك اللحظة التي نُدرك فيها مدى غير واقعية ذلك الانقسام لا يبدو الكون غريبًا بالنسبة إلينا مُجددًا، فأنا لست أكثر مما أعرفه! وما أعرفه جيدًا هو ذاتي، إن استشعاري منزلًا ما يقع في الجانب الآخر من الطريق أو نجمًا ما في الفضاء الخارجي ليس بأقل من شعوري بتلك اَلحَكّة التي تستوطن باطن قدمي أو تلك الفكرة التي تحتل رأسي، بمعنى آخر يمكنني تعريف نفسي بأنني أيضًا ما لا أعرفه! فأنا لست واعيًا بطبيعة عقلي الخاصة ووظيفته بوصفه عقلًا، وبالطريقة نفسها أنا لست واعيًا بهذا المنزل الذي يقع في الجانب الآخر من الشارع بعيدًا عن كيفية استشعاري به، وعلى المنوال نفسه فأنا لا أعرف عقلي ولا المنزل بعدّه شيئًا في حد ذاته كما أنني لا أعرف تلك الأفكار الخاصة التي تشغل عقلك ومع ذلك فإن عقلك هذا وعقلي وذلك المنزل الذي يقع في الجانب الآخر من الشارع هي أشكال لعملية مُتشابكة على نحوٍ لا ينفصم تُعرَف باسم العالم الحقيقي، فسواء أكنت واعيًا أم كنت غير واعٍ فإنني أستشعر الشمس والهواء والمجتمع الإنساني بوصفها أشياء مهمة جِدًا بالنسبة إلي بقدر أهمية عقلي ورئتي نفسهما، تمامًا بتلك الطريقة غير الواعية التي يعمل بها الدماغ، كذلك تبدو الشمس والهواء والمجتمع الإنساني، فمن المؤكد أنني لا أملك تلك القدرة على اَلتّحَكُّم في الشمس لأجبرها أن تستحيل في هيئة «بيضة» ولا يمكنني كذلك إجبار عقلك على التفكير باختلاف، وليست باستطاعتي رؤية الأجزاء الداخلية للشمس ولا أن أُشاركك مشاعرك الشديدة الخصوصية، ومع أن ليس بإمكاني تغيير شكل عقلي أو هيئته ولا يمكنني مثلًا إعادة تشكيله على شكل زهرة القرنبيط مثلًا فإن عقلي يُمثلني تمامًا كما تمثلني الشمس

والهواء والمجتمع الإنساني الذي أُعد عضوًا فيه، فكل تلك الأشياء رئيسة جدًا بالنسبة إلى وجودي تمامًا كما العقل، وتلك الشمس التي عرفت بوجودها من خلال استنتاجي الخاص، فالحقيقة أنني أملك عقلًا مع أنني لا أستطيع رؤيته فهو مجرد استنتاج، فنحن نعرف تلك الأشياء نَظَريًا فقط وليس من خلال الخبرة المُباشرة ولكن هذا العالم الخارجي من العناصر النظرية يشهد ذاك القدر نفسه من الوحدة تمامًا كما العالم الداخلي للتجربة، فمن خلال تلك التجربة يُمكنني أن أُشير إلى وجوده.

يمكنني القول من هذا المُنطَلَق إن التجربة في حد ذاتها تُعَد وحدة -فأنا أُمَثِّل مشاعري- ويتعين عليّ بناءً على ذلك الاستنتاج أن نظريات الكون وحدة وأن جسدي والعالم يُشكلان عملية واحدة، وأن هناك الكثير من النظريات حول وحدة الكون لكنها لا تحمي البشر من عزلة الأنانية ومن الصراع الناشئ نتيجة الخوف من الحياة، لأن هناك فرقًا شاسعًا بين الاستنتاج والشعور، ومن ثَم فبإمكانك أن تفهم أن الكون دون شعور يسير على هذا النحو.

يُمكننا بدورنا أن نؤسس هنا لتلك النظرية التي تقول إن جسدك ما هو إلا حركة لعملية متواصلة غير مُنقَطِعَة تشتمل على كل الشموس والنجوم التي سرعان ما باغتها شعور الانعزال والوحدة، واعلم أن الشعور لن يتوافق مع النظرية ما لم تكتشف وحدة التجربة الداخلية، بصرف النظر عن كل النظريات سوف تشعر بأنك معزول عن الحياة ما دمت تشعر بالانقسام الداخلي لكن سرعان ما يتلاشى شعورك بالعزلة في تلك اللحظة التي تُدرك فيها على سبيل المثال أن ليس لديك مجرد إحساس عابر بالسماء وأنت مَن تُمَثِّل ذلك الشعور ذاته، وبعيدًا عن كل أغراض الشعور فإن إحساسك بالسماء يعني توحدك معها، فأنت لست مُنفصلًا عما تشعر به أو تعرفه، ولهذا السبب على وجه التحديد استخدم عدد كبير من الشعراء والمتصوفين عبارات مُحددة بشكلٍ مُتكرر لوصف أحوالهم ولعل أبرزها «التوحد مع كل شيء» أو «الانسجام مع الإله» تلك التي عبرت عنها مثلًا الكثير من القصائد الشعرية التي كتبها السير إدوين أرنولد، الشاعر الإنجليزي.

على المرء أن يكتشف أن كل شيء تشمله الطبيعة يوجد داخله في واقع الأمر سواء أتمثل هذا في إحساسه بأعماقِ المحيطات أم تمثل في تراكمات الجليد أم تمثل في زواحف المُستنقعات والعناكب والعقارب وصحاري الكواكب المُقفرة غير المأهولة، فكل تلك الأشياء تعكس صداها في نفسه، فلن يصبح الإنسان مُتناغمًا مع ذاته حتى يدرك أن نفسه تلك تقبع أسفل تلك الطبيعة وأهوالها المُرعبة، فنحن نحب ونكره العالم حولنا بناءً على تلك الانعكاسات المُنبعثة من داخلنا، والأمر هنا يتجاوز الوعي والمعرفة والدراية. إن مشاعرنا تجاه أعشاش الدبابير وجحور الأفاعي قد نشأت بتلك الصورة بسبب جوانب خفية لأجسادنا وأدمغتنا واحتمالها الهائل لتلك الأمراض الهائلة والآلام التي لا يمكن تخيلها، وهناك مسألة قد تمت إثارتها من قبل ولست أعرف إن كانت أمرًا صحيحًا أم لا وتقول إن الحكماء العظماء والقديسين يملكون قوى خارقة ضد الوحوش والزواحف تلك التي تُمَثِّل خطرًا على البشر العاديين، ولو كان ذلك صحيحًا يمكنني القول إن هذا يرجع إلى قدرتهم على العيش بسلام مع الوحوش والزواحف التي تعيش في داخلهم، فهم ليسوا بحاجة مثلًا إلى أن يطلقوا على الفيل البري اسم البهيموث أو وحش البحر أو اللوياثان نظرًا إلى امتلاكه أنفًا طويلًا.

Telegram:@mbooks90

إن الشعور بالتَّوَحُّدِ مع الكل ليس حالة ذهنية سديمية غامضة لكنه نوع من النشوة التي تلغى خلالها كل الأشكال كما يُدمج الإنسان والكون في هالة ضبابية مضيئة ذات لون بنفسجي شاحب تمامًا كما العلاقة بين العملية والشكل، والطاقة والمادة، والذات واللحظة الآنية، وتعد كلها أسماء وطرائق لوصف الشيء نفسه كتلك العلاقة بين الفرد والبقية والوحدة والتعددية والهوية والاختلاف، فجميعها ليست أضدادًا متعارضة، لكنها تُستخدم في تعريف بعضها بعضًا تمامًا كما يمثل الجسد أعضاءه وأجهزته المتعددة، فعندما نكتشف أن الأنا تتوحد مع الكل وعندما نُدرك جيدًا أن كل شيء حولنا يتوحد بدوره معها نعرف أن تلك الكلمات وتلك التعبيرات التي اتفقنا على استخدامها تُمَثِّل ما كان يومًا مفهومًا ومحسوسًا وهذا في حد ذاته يعد لُغزًا مُحيرًا للمنطق والوصف.

يُحكى أنه ذات مرة ذهب شاب يافع في رحلةٍ للبحث عن الحكمة الروحية،

وحينها أراد أن يتتلمذ على يد أحد الحكماء الكبار وألزَم ذاته بتنفيذ تعليمات الرجل العجوز، وقد عين الحكيم لاحقًا مرافِقًا شخصيًا له، وبعد مرور بضعة أشهر تذمر الشاب لأنه لم يستقبل أي تعليمات مدة من الزمن، وفي تلك اللحظة سأله الحكيم العجوز قائلًا:

- ما الذي تعنيه بقولك هذا؟ ألم أتناول الأرز الذي أحضرته لي؟ ألم أحتسِ الشاي الذي منحتني إياه؟ ألم أرد عليك التحية بعد إلقائها مُباشرةً؟ فمتى تجاهلت مسألة إعطائك تعليمات؟

- في الواقع لا أفهم ما تقول يا سيدي، رد عليه الشاب وعلامات الدهشة تحتل وجهه ثم أجابه الحكيم:

- إذا أردت تأمُل شيء ما انظر إليه بشكلٍ مُباشِر لأنك تفقده في تلك اللحظة التي تبدأ التفكير فيه!

إن المعنى هنا ليس المقصود به تأمل نور الشفق لحظة الغروب، فهذا ربما هو الجو الظاهري المثالي اَلمُفَضَّل للشعراء الصينين، وقد تم التعبير عنه بالفعل في قصائد شعرية عديدة، وهذه ليست مُحاولة منهم لتجميل الأمر مثل الكثير من الشعراء الغربين الذين استحالوا فلاسفة، فهم يتحدثون دائمًا عن فكرة تَوَحُد الذات مع الزهور والسياج والتلال والطيور، ربما يطلقون على ذلك تعبيرًا اصطلاحيًا في حكمتهم الشرقية ألا وهو «وضع قدميك على جسدِ ثعبانٍ ما» ففي تلك اللحظة التي ستفهم فيها أنك ما تراه وما تعرفه لن تحتاج إلى الركض في كافة الأرجاء مستغرقًا في التفكير ثم تقف بغتةً مُتسائلًا:

- هل مشيت كل هذا؟ فبدلًا من ذلك ستقول:

- أنا كل هذا!

إن لذلك الشعور بأننا نقف في مُجابهة العالم ونحن نحيا حالة من العزلة الداخلية تأثيرًا كبيرًا في الفكر والفعل، فالفلاسفة على سبيل المثال دائمًا يخفقون في إدراك حقيقة أن ملاحظاتهم وتصريحاتهم عن الكون ما هي إلا انعكاسات داخلية لأنفسهم.

إذا فقد الكون معناه سيكون الأمر كذلك مع لغة البيان التي نستخدمها، فإذا أصبح العالم أحد أفخاخ الشر سيؤدي دور ألْمُتَّهَم الذي ينتقد غيره بعيبٍ فيه.

وفقًا لهذا المعنى الدقيق لا يمكننا أن نُفَكر في الحياة والواقع على الإطلاق لأن هذا سوف يشمل قضية التفكير في التفكير! تلك العملية الذهنية التي تستطيع الاستمرار إلى ما لا نهاية، فالمرء لا يسعه إلا أن يُقَدِّم وصفًا عقلانيًا لفلسفة الكون افتراضًا أن الواحد مِنا مُنعَزِل تمامًا عنها، أما إذا كنت أنت وأفكارك جزءًا من الكون فليس باستطاعتك الانفصال عنها من أجل وصفها، وربما يعد هذا السبب الرئيس لأن كل النظم الفلسفية واللاهوتية تتداعى وتنهار في نهاية المطاف، فحتى تعرف الواقع حق معرفة عليك ألا تَنفصل عنه من أجل محاولة تعريفه وتحديده بل عليك الانخراط فيه والشعور به، فكما اعتدنا تعريف الفلسفة التأملية في الغرب بعدّها أحد أعراض العقل المُنقَسِم لذلك الشخص الذي يُحاول الانفصال عن ذاته وتجربته من أجل التعبير اللفظي عنها وتحديدها، فالأمر هنا ليس أكثر من دائرة مُفرغة تمامًا كما هي طبيعة كل شيء ينتج عن محاولات العقل المُنقَسِم، وعلى الجانب الآخر إن إدراك حقيقة أن العقل غير مُنقَسِم بطبيعته تؤثر إلى أبعد مدى في الأفكار والأفعال.

فكما رأينا في السابق تلك الحالة التي يعيشها الفيلسوف من أجل الانفصال عن ذاته وأفكاره يمكننا أن نلحظ أيضًا المحاولات التي يقوم بها الإنسان العادي بدوره من أجل الانعزال عن نفسه وعن مشاعره وعواطفه ورغباته التي ينتج عنها ذلك الارتباك المُدهش وإساءة التوجيه التي تدفع بوحدة العقل إلى الوقوف على حافة الانهيار.

ما إن يدخل العقل تلك الحالة من الانقسام حتى تشهد الحياة صراعًا دائمًا وتوترًا وإحباطًا وخيبة أمل، وتبدأ صور المعاناة والخوف والمَلل التراكم بعضها فوق بعض، فكلما كافحت الحشرة بجهدٍ أكبر من أجل الخروج من إناء العسل التصقت به أسرع، يُمكننا القول إنه في ضوء تلك الحالة من الإجهاد والارتباك والعبث لا عجب أن البشر يبحثون عن خلاصهم في العنف والإثارة والاستغلال الأرعن لأجسادهم وشهيتهم وعالمهم المادي ومواطنيهم، فما الذي من المُمكن أن يضيفه هذا إلى آلام الوجود

الحتمية التي لا تُحصى ولا تُعد؟ ولكن العقل غير المُنقَسِم يتحرر من محاولاته المستمرة في الانفصال عن ذاته والوجود في مكانٍ ما بدلًا من اللحظة الراهنة الآنية.

عندما نعيش كل لحظة من الزمن بشكلٍ كامل فإننا نشعر حينها بالاكتمال والإنجاز، فعندما يجلس المرء صاحب العقل المُنقَسِم حول طاولة العشاء فإنه يبدأ نَقر كل الأطباق العديدة الموجودة حوله الواحد تِلو الآخر في عجلة واضحة دون أن يُحاول هضم أي شيء من أجل اكتشاف الطبق الأفضل بينهم، لكنه في النهاية لا يعثر على طبق جيد كما أنه لا يختبر مذاقًا جيدًا، وعلى الجانب الآخر عندما تُدرك جيدًا تلك اللحظة الحالية التي تعيش فيها وتعرف أنه ما من زمنٍ آخر إضافي وكذلك ما من مستقبل ولا ماض، فإنك تبدأ الاسترخاء التام وتستمتع بلحظتك سواء أشهدت حالة من الألم أم شهدت حالة من السعادة، وفجأة تشعر بأن سبب وجود هذا الكون بات أمرًا واضحًا، وكذلك باستطاعتك حينها فهم أسباب وجود الكائنات الواعية والأعضاء الحساسة والفضاء والزمن والتغيير، في تلك اللحظة فقط تختفي مشكلة تبرير الطبيعة ومحاولة جعل الحياة تعني شيئًا بناءً على مستقبلها، إن كل شيء يتوقف ببساطة على تلك اللحظة، فالعملية بأسرها أشبَه بالرقصة؛ أنت عندما ترقص تفعل ذلك بشكلٍ عفوي مُتناغِم دون أن تنوي الذهاب إلى مكانٍ ما، فتجد نفسك تدور وتدور ولكن دون أن تحيا تلك الحالة من الوهم وتنشد السعي وراء شيء ما أو تهرب من أبواب جهنم.

علينا أن نسأل أنفسنا منذ متى والكواكب تدور حول الشمس؟ هل حاولت خلال تلك المدة الزمنية أن تذهب إلى مكانٍ آخر وتخرج عن مسارها؟ هل توجهت بسرعة أكبر من أجل الوصول؟ كم مرة يعود الربيع إلى الأرض؟ هل حاول من قبل أن يقوم بذلك بشكلٍ أسرع ليتأكد أن هذا الفصل الربيعي مثلًا أفضل من الربيع الماضي؟ أو هل قام بفعلته على عجل من أجل جَلب أفضل فصل ربيعي على الإطلاق؟

إن معنى الرقص والهدف منه هو الرقص كما الحال مع الموسيقى تلك التي تملأ كل لحظة، فأنت لا تعزف السوناتا مثلًا من أجل الوصول إلى الوتر اللحني الأخير، فإذا كان معنى الأشياء يتمثل ببساطة في نهاياتها لما كتب الملحنون الموسيقيون

أي شيء سوى النهايات، ومع أن هناك سمة خاصة لثقافتنا الموسيقية تشير إلى تقدمها في نواح عدة كما أنك تجدها في بعض الأحيان تمضي في طريقها قُدمًا من أجل مصافحة ذروة المستقبل، ولكن عندما يصل الأمر إلى تلك النقطة لا تعرف موسيقانا ما الذي باستطاعتها فعله مع ذاتها، فعلى سبيل المثال لقد أذنب بيتهوفن وبرامز وفاغنر بالاهتمام الشديد ببلوغ تلك الذروة الاستنتاجية ونسف اللحن نفسه مرارًا وتكرارًا دون أن يُدركوا أنهم بذلك قد دمروا اللحظة الراهنة عن طريق التردد في مغادرتها! فعندما تصبح كل لحظة متوقعة تحرم المرء من الشعور بالاكتفاء والاكتمال.

إننا نخشى الموت نظرًا إلى كوننا نراه أحدَ التوقعات التي يَجدُر بها أن تأتي إلينا في نهاية المطاف، ما دام هناك حياة يوجد الأمل، ولكن بالنسبة إلى العقل غير المُنقَسِم فإنه يرى أن الموت هو لحظة أخرى كاملة تامة تمامًا ككل لحظة، وأنه لا يكشف عن سِره دون العيش بشكلٍ كامل، فالموت هو مثال الحقيقة أن كل حركة ستدفع بنا إلى المجهول وهنا تنتهي كل محاولات تشبثنا بالأمن، وبصرف النظر عن ذلك الماضي الذي تُرك أو ذلك الأمان الذي هُجر فإن الحياة تتجدد على الدوام، فالموت هو تلك الحالة التي عشنا فيها جميعًا قبل الميلاد، فلا شيء أكثر إبداعًا من الموت، ذلك الذي يعد سِر الحياة الكامل.

تلك العملية تتطلب منا هجر الماضي وَالتَّخَلِّي عنه، كما ينبغي لنا الإدراك التام أن ليس باستطاعتنا تَجَنُّب المجهول، وأن ليس باستطاعة الأنا الاستمرارية، وبأن ما من شيء يمكن إصلاحه، فعندما يعرف الإنسان تلك الأمور يحيا بشكلٍ حقيقي أول مرة في حياته، عن طريق حبس المرء أنفاسه فإنه يفقدها ولكن إذا سمح لها بالمغادرة سيجدها!

يُمكننا الإشارة إلى أن هذا يتماشى بدوره مع ما قاله جوته في كتابه «الديوان الشرقي الغربي»:

«ما دمت لا تعرف كيف يمكنك أن تموت وتعود إلى الحياة مُجَددًا، فأنت لست إلا عابِر سبيل كئيبًا وسط هذا الظلامِ الدامس».

الأخلاقيات الإبداعية

ربما يكون من المُفارَقة التحدث عن الأخلاقيات الإبداعية لأن كلمة «أخلاقيات» مُشْتَقَّة من كلمة معناها العُرف والاتفاقية وتنظيم الحياة بناءً على الالتزام بعددٍ من القوانين، لكن الأخلاقيات أيضًا اشتغلت على قيمة الحب في العلاقات بين البشر، ومن خلال ذلك يمكننا التحدث عن الأخلاقيات الإبداعية التي وصفها القديس أوغسطين بقوله:

«تحلَّ بالحب وافعل ما تشاء». ولكن المشكلة تتمثل في الإجابة عن هذا السؤال القائل «كيف من المُمكن أن تُحِب ما لا يُعجبك؟»، ومن ثَم فإن الأخلاقيات هي العامل الأساسي والمحرك الرئيس في فن العيش بوصفه كلًا، ومن الواضح بناءً على ذلك أن قوانينه وتقنياته تحتل مكانة كبيرة ملموسة، فالكثير من مشكلات المجتمع ما هي إلا مشكلات تقنية مثل توزيع الثروة وعدد السكان، والإدارة الصحيحة للموارد الطبيعية وتنظيم حياة العائلة، ورعاية المرضى والمُعاقين، وَالتَّكَيُّف المُتناغِم مع الاختلافات الفردية، فالأخلاقي في الأساس هو شخص تقني فني يُستشار في حل المشكلات المختلفة تمامًا كما يُمكن للمرء استشارة المهندس المعماري فيما يتعلق ببناء منزل ما أو كأن يُستعان بالمهندس المدني في تشييد أحد الجسور أو الاستشارات في مجالات الطب، وصناعة الأحذية والطهو وحياكة الملابس وتصميمها والزراعة والنجارة، فالعيش بشكلٍ عام يتطلب من المرء دراية ومعرفة كاملة كما أنه يشترط كيفية استخدام المهارات وتطويرها، لكن الشخص الأخلاقي من الناحية العملية أكثر من مجرد مستشار تقني إذ إنه حمل على عاتقه مسؤولية توبيخ السلالة البشرية من منبره أو من مكتبه الخاص، وبدأ يوجه اللوم وكذلك الثناء تجاه القضايا المختلفة التي تخصهم، لكن مُعَدَّل اللوم والتأنيب كان أكثر من غيره تمامًا كما ألسنة اللهب التي تخرج من فم التنين، فالناس لا يأخذون نصيحته لكنهم يبذلون قصارى جهدهم في معرفة كيف بإمكانهم التصرف في ظل تلك الظروف والأحوال، وحينها تجده يُخبرهم ما يجب عليهم فعله، وتبدو علامات موافقته الرأي جلية على وجوههم، إنهم يرونه محقًا بكل صراحة لكنهم يجدون أن تنفيذ نصيحته هو أمر بالغ

الصعوبة، أو أنهم يملكون رغبةً قويةً في فعل العكس.

يحدث ذلك بشكلٍ مُنتَظم، فالفيلسوف الأخلاقي يفقد السيطرة على أعصابه فجأة في تلك الأثناء، وتجده يبدأ إطلاق السباب والشتائم، ذلك الأمر عديم الجدوى فإذا به يلجأ على الفور إلى العُنف الجسدي من أجل تطبيق نصيحته وتنفيذها عن طريق الاعتماد على رجال الشرطة وأوجه العقاب والسجون، فالمجتمع في حد ذاته يؤدي دور الفيلسوف الأخلاقي فهو مَن يختار وينتخب ويدفع أجور القضاة ورجال الشرطة وَالدُعَاة، وكأنه يقول «إذا وجدتني قاسيًا اركلني!». ويمكننا تلخيص المشكلة الأساسية للوهلة الأولى في الآتي: «إن الأخلاق والآداب العامة وُضعت خصيصى من أجل تَجَنُّب التوزيع الجائر غير المُنصِف للسعادة والألم وتحاشيه، وهذا بدوره يعني أن بعض الأفراد لا يحصلون إلا على القليل من المُتعَة والكثير من الألم، وهم يمتثلون فقط التضحية تحت خطر تهديد الشعور بالمزيد من الآلام، وهذا يعتمد على افتراض أن كل شخص يهتم بشأنه الخاص ويُراقِب اهتمامات المجتمع ومصالحه إلى هذا الحد الذي يجعله يشعر في قرارة نفسه بأنها اهتماماته ومصالحه الخاصة. وانطلاقًا من ذلك فإن الأخلاقيين قد تمكنوا من تطوير نظرية أن الإنسان أناني بطبعه، وأن لديه ميلًا واضحًا تجاه الشر، فالإنسان العادي الطبيعي يعيش من أجل دافع واحد وهو أن يحمي جسده من الألم ويربطه بالمزيد من المُتَع لأنه لا يمتلك إلا القدرة على الشعور بجسده فقط، فالمرء لا يملك إلا القليل من الاهتمام إزاء أجساد الآخرين، وبناءً عليه فإنهم يجدون اهتمامًا بذلك بعد العمل وفقًا لمبدأ الثواب والعقاب عندما تتوحد اهتمامات الفرد مع اهتمامات المجتمع ومصالحه، والمشكلة ليست بهذه البساطة، فمن بين تلك الأشياء التي تمنح السعادة للبشر هي المحادثة ومشاركة الطعام معًا والغناء والرقص وإنجاب الأطفال والتعاون في العمل، كما أن إحدى أكبر تلك المُتَع هي درجة وعي المرء بوجوده الذاتي وإذابة بصره في المشاهد المثيرة والأماكن الغنية والأصوات، ويعد عدم إلمام المرء بكل ما يحيط به وانعزاله عن المجتمع والعالم حوله أحد أبرز الآلام، لكن ما من حل فِعلي لتلك المعضلة إذا نظرت إليها وفقًا لدوافع السعادة والألم أو عند النظر إلى أي دوافع بشكلٍ عام لأن الإنسان يمتلك مشكلة أخلاقية تلك التي لا يمتلكها مجتمع الحيوانات، وذلك لأن

البشر مرتبطون جدًا بمسألة الدوافع، ولكن إذا كان دافع الألم والسعادة المُحرِّك الرئيس للمرء فلا جدوى من مُناقشة السلوك البشري، فالسلوك التحفيزي هو ذلك الفِعل المشروط بأمورٍ مُحددة، ولكن الأخلاقيات الإبداعية لا تؤتي ثمارها إلا إذا كان هناك وجود لعنصر الحرية، تلك المساحة التي تُمَكِّن الفلاسفة الأخلاقيين من ارتكاب الأخطاء، فإذا كانوا يرغبون في أن يغير الفرد وجهة نظره للحياة عليهم أن يؤكدوا حريته الكاملة لأنه إذا لم يكن كذلك ستكون تلك الحالة من السخط والهياج على الصعيد العالمي دون أي جدوى، وعلى الجانب الآخر فإن هذا الشخص الذي يتصرف بناءً على خوفه من التهديدات الأخلاقية لا يتصرف بحرية على الإطلاق! فإذا لم يكن المرء حُرًا بالفعل لا قيمة لأي تهديدات أو وعود، وما من وسيلة بإمكانها تغيير سلوكه وتعديله، فإذا كان حُرًا لن تُجبره التهديدات والوعود على استغلال حريته.

لا يمكن للعقل المُنقَسِم فهم معنى الحرية واستيعابه أبدًا، فإذا شعرت بالانفصال عن تجربتي الخاصة وكذلك عن العالم ستصبح الحرية بالنسبة إلي مجرد طريقة مجردة من أجل دفع العالم جانبًا أو أن يدفعني الأخير بدوره، ولكن العقل الكامل لا يرى أي تناقض بين الذات والعالم المُحيط بها، فهو يتعامل مع المسألة كلها بوصفها عملية واحدة، فهي المسؤولة بدورها عن كل شيء، فهي مَن تجعلني أرفع إصبعي الصغير وهي كذلك المُسَبِّبَة لحركة الزلازل والهزاتِ الأرضية أو يُمكنني أن أصيغ لك العبارات السابقة بطريقة أخرى وهي أنني المسؤول عن رفع إصبعي الصغير، وكذلك أنا المسؤول عن حركة الزلازل، فما من أحد مُسَيَّر في تلك المسألة.

أعرف بالطبع أن هذا منظور غريب للحرية ولكننا اعتدنا التفكير في أن وجود أي حرية على الإطلاق يفترض أن تتمثل في إرادة الإنسان المستقلة وقدرته على اتخاذ القرارات بعيدًا عن الطبيعة.

يُمكننا القول في هذا السياق إننا نقصد بالاختيار هنا شيئًا آخر يختلف عن الحرية لأن الاختيارات هي القرارات التي تُتخذ بدافع المتعة أو الألم كما أن العقل المُنقَسِم يبذل قصارى جهده فقط من أجل حصول الأنا على المُتعَة والابتعاد عن الألم، لكن أفضل المُتَع هي تلك التي لا يخطط لها المرء، وكذلك يعد توقع الألم ومحاولة

الابتعاد عنه عندما يأتي أسوأ جزء فيه، فليس بلستطاعتك أن تُخَطط كي تكون سعيدًا مثلًا لكن باستطاعتك أن تُخَطط لأن توجد لكن الوجود والعدم في حد ذاتهما ليسا أمورًا جالبة للألم والمُتعَة، فلقد أكد لي الأطباء أن هناك ظروفًا عدة يصبح فيها الموت تجربة بالغة المُتعَة!

إن إحساس المرء بأنه غير حُر يتأتى بدوره من محاولة فعل أشياء مستحيلة لا معنى لها، فأنت لست حُرًّا في رسم دائرة مُرَبَّعَة الشكل! كما أنك لست حُرًّا في أن تعيش دون رأس، ولا يمكنك إيقاف ردود الفعل المعاكسة، فتلك الأمور ليست عقبات في طريق الحرية لكنها أوضاع الأخيرة وأحوالها، فأنا لست قادرًا بدوري على رسم دائرة ما قد تستحيل مصادفة إلى شكلٍ مُرَبَّع كما أني لست قادرًا -شكرًا للرب- على الخروج وترك رأسي داخل المنزل وبالطريقة نفسها فأنا لا أستطيع أن أحيا سوى تلك اللحظة الراهنة، لا يمكنني أن أفصل نفسي عن مشاعري، بإيجاز أنا لست حُرًّا عند فعل شيءٍ مُتناقض مثل أن أتحرك دون تغيير الوجهة، أو أن أحرق إصبعي دون الشعور بالألم، وعلى الجانب الآخر أنا حُر كما أن العملية العالمية تتمتع بالحرية فيمكنك بكل بساطة أن تفعل أي شيء لا يُمَثِّل تناقضًا.

إن ذلك الطَّرح السابق يُثير بدوره سؤالًا مُحددًا وهو: هل هذا يُشكِّل تعارضًا؟ هل من المستحيل حقًّا أن يحيا المرء ويتصرف دون التقيد بمسألة الشعور بالمُتعَة ودون أن يجعلها هدفه النهائي الكلي؟ في الواقع إنني أرى تلك النظرية القائلة إن علينا أن نحيا بالطريقة التي تجعلنا نحظى بمُتعَة أكبر وألم أقل هي مجرد عبث لا معنى له يعتمد على ارتباك ووهم لفظي فحسب، فعندما أُقَرر أني سأقوم بشيءٍ ما لأنه يسعدني فإنني سأفعله على الفور، فإذا عُرفت المُتعَة منذ البداية على أنها «ما يفضله المرء» سيكون بالتبعية كل ما يفضله الواحد مِنا مصدرًا رئيسًا لمتعته الخاصة، فمثلًا إذا كنت أُفَضِّل الألم مثل الشخص المازوخي سيكون الألم في حد ذاته بالنسبة إلي مُتعَة، يمكننا الاستنتاج أن النظرية تقول إن علينا طرح ذلك السؤال على أنفسنا منذ البداية وحينها سنعرف أن تلك الأشياء التي تُحَقق لنا المُتعَة هي تلك التي نرغب فيها، لكننا نسقط في هذا التناقض في تلك الحالة التي نُقَرر فيها أن نتصرف ونُقَرر من أجل الشعور بالسعادة، فإذا ربط المرء شعوره بالفرح بأهدافٍ

مستقبلية فإنه لن يكون قادرًا على الاستمتاع بلحظاته الحالية، ولا يمكن لذلك الفِعل أن يضمن له أي سعادة مستقبلية، كأن أقنع نفسي أن عليّ الشعور بالسعادة لأنني مثلًا سأذهب لتناول الطعام غدًا أو أنني سأتوجه في رحلة إلى الجبال الأسبوع المقبل لكن ما من ضمان حتى أشعر بالفرح بعد تَحَقُّق تلك الوعود، فعلى النقيض تمامًا هناك تجربة شائعة تقول إن ما يُدَمِّر الشعور بالمُتعَة مراقبة المرء ذاته خلال منتصف تجربته تلك ليرى إن كان حقًا يشعر بالسعادة أم لا.

في الواقع لا يمكنك أن تعيش إلا لحظة واحدة من الزمن وليس باستطاعتك أبدًا أن تستمع إلى الأمواج وأن تُفكر في مسألة استماعك إليها! فتلك التعارضات من هذا النوع هي أنواع حقيقية للتصرف دون حرية وهناك نظرية أخرى تقول إن الأفعال التي تعتمد على تحفيز الآليات العقلية غير الواعية لا توحي بأن معظم قراراتنا التلقائية العفوية تُتخذ بحرية، وربما يأتي هذا أنموذجًا لحالة العقل المُنقَسِم وتلك الحالة من الوهم المستمر التي تعيشها الذات والإنسان الحقيقي الذي تربطه علاقة بالكون والذي يعيش على الدوام حالة من التحفيز الباطني لأنه يُمثل الكون بمعناه الحرفي وليس لأنه يُحفز عن طريقه فحسب، وبعبارةٍ أخرى فالمسألة لا تخص عملية «التحفيز» لكنها تخص «التفعيل» والعقل الباطن ليس بِمَعْزِل عن العقل الواعي تمامًا كما العين، فمع قدرتها على رؤية أي شيء فإنها عاجزة عن رؤية نفسها! وهنا يأتي ذلك الافتراض أن عملية الفعل بأسرها التي تربط بين الإنسان والكون تتأثر بشكل وثيق بتلك السلسلة المُحددة من الأحداث ويعد كل حدث فيها نتيجة حتمية سببها الماضي، ومن هنا يمكننا القول إنه ليس بإمكاننا مناقشة المشكلة بشكلٍ مُكَثَّف لكن ربما يكفي هذا لندرك أن تلك هي واحدة من أبرز أسئلة العلم المفتوحة التي تجعلنا أبعد ما يكون عن الوصول إلى قرار، فالفكرة ببساطة أن ذلك الحاضر الذي يتحكم فيه الماضي ما هو إلا أحد أوهام اللغة، لأننا وفقًا لذلك سنصف الحاضر من خلال النظر إلى الماضي اعتمادًا على أحكامه الخاصة، ومن ثَم سيبدو الأمر وكأن الماضي يشرح الوقت الراهن، فعندما نفسر حدوث شيء ما فإننا نضطر إلى وصف سلسلة الأحداث التي وقعت في السابق والتي تبدو وكأنها جزء منه.

فإذا قلت على سبيل المثال هنا: تحطمت الزجاجة. سقطت التوة على الأرض.

سمحت لها بالوقوع. أصابعي زلقة. غسلتها بالصابون، فهل يحق لنا هنا أن نستخدم أداة الربط «لأن» بين كل تلك العبارات حتى تبدو أكثر منطقية؟

اعتدنا إضافة السبب بوصفها قاعدة عامة لذا يمكنني افتراض الرهان الآمن بقولي إن الزجاجة سقطت على الأرض لأني أفلتها من يدي بسبب الصابون، لا يمكنني مع ذلك أن أجزم أن هذا السبب هو ما جعلها تسقط أرضًا، فالأحداث تبدو حتمية إذا نظرنا لها بأثرٍ رجعي لأنه لم يكن من الممكن تغييرها لحظة حدوثها، ولكن طريقتنا المُعتادة تلك في استخدام الرهان الآمن هي التي تجعلنا نثبت لأنفسنا أن كافة الأحداث متساوية ومستمرة، وبعبارةٍ أخرى فإن العملية الكونية تسير بشكلٍ حُر وتلقائي في كل لحظة زمنية، تلك التي تتعامل مع تيار تدفق الأحداث بشكلٍ منتظم مُتوقع، وهنا نجد أن العقل غير المُنقسِم هو مَن يحيا حالة من الحرية الحقيقية وينظر إلى الحياة عبر طريق الأخلاقيات والآداب العامة بطريقة إبداعية لا تعرف قيودًا، ومن السهل أيضًا أن تجد العقل المُنقسِم يعيش حالة من الانجذاب نحو تلك الأفكار المتعارضة التي نعرفها بالخبيثة الشريرة والتي تأتي من رغباته الجشعة اَلنَّهِمَة والتي لا تنشد الحفاظ على صحة العقل والجسد وتعد أمرًا ضروريًا للإنسان من أجل مواصلة السعي، وتنشأ بدورها نتيجة استغلال شهواته من أجل منح «الأنا» شعورًا بالأمن، فإذا كنت مُكتئبًا فإني أبحث عن وسيلة فورية من أجل الخروج من حالة الاكتئاب، ولأن نقيض الاكتئاب هو «النشوة» ولكن بالطبع ليس معنى الاكتئاب هو عدم الانتشاء، وعلى هذا لا يمكنني أن أُجبِر نفسي على أن أكون مُنتشيًا، ومع ذلك يمكنني أن أتناول الخمر لأُعطي نفسي ذلك الشعور المُزَيف، وهذا يجعلني أشعر بالانتشاء بطريقة رائعة ولكن عندما تأتي مرحلة جديدة من الاكتئاب يصبح لديّ علاج سريع اختبرته من قبل وأثبت فاعليته، وستكون مرحلة الاكتئاب اللاحقة أكثر قتامةً وأشد عُمقًا لأني لم أتمكن من هضم حالة الاكتئاب والقضاء على سمومها، ومن ثَم فإني أضطر إلى احتساء المزيد من الخمر حتى يُمكنني إغراق أحزاني وتجاوزها -ذلك الأمر الذي يجعلني لا أزال أشعر بالاكتئاب- وعلى هذا تمر الحال على هذا المنوال أو ربما أمتلك عائلة كبيرة ونسكن جميعنا في منزلٍ تحت الرهن أنفقت كل مدخراتي من أجله، ومن ثَم وجب عليّ أن أعمل جاهدًا في عملٍ ما لا أهتم به

ولا أستمتع بوجودي فيه ولكني أفعل ذلك من أجل دفع الفواتير فقط، فأنا لا أمانع العمل كثيرًا لكني لا أكف عن التساؤل بحيرة: ماذا لو مرضت؟ ماذا لو اندلعت حرب ما وأُطيح بي من وظيفتي لاحقًا؟ وبدلًا من أن أفكر في حلول لتلك الأشياء أجدني لا أريد أن أمضي الكثير من وقتي لأفكر فيها فكل رغبتي تتجسد في كوني أتحمس لإخراج «الأنا» من عملية القلق الذي يجعلني أعاني، ولأنني واثقة بأنني سأمرض يومًا إذا استمرت الحال على هذا الوضع فإنني أحاول أن أحصل على راحتي من خلال اللجوء إلى الرهان على الخيول في المسابقات كونها طريقة لمحاولة تعويض القلق وخلق نوع من الموازنة بوجود ذلك الأمل اليومي أن حصاني باستطاعته الفوز، ويمضي الأمر على هذه الحال، فالشخص الأخلاقي التقليدي لا يملك القدرة على المساهمة في وضع حلول ملموسة لتلك المشكلات فكل ما باستطاعته فعله هو أن يُشير إلى الآثار المُخيفة لإدمان الكحول ولعبة القمار، فهذا ببساطة يعد وقود القلق والاكتئاب كما أن بإمكانه أن يعد بوجود المكافئين في الجنة، مع أن هذا الوعد في حد ذاته يعد نوعًا من أنواعِ المُقامَرَة وباستطاعته أيضًا أن ينسب ذلك الاكتئاب أو القلق إلى النظامِ الاجتماعي وأن يحث أولئك البؤساء غير المحظوظين على الانضمام إلى الثورة.

باختصار، يمكننا القول إن الإنسان يجد نفسه بغتةً أمام أحد أمرين فإما أن يُخيف الأنا وإما أن يُشجعها، وذلك إما أن يجعل المرء يهرب من ذاته وإما يركض خلفها! فبإمكانه رسم المزيد من الصور المتوهجة عن الفضائل، وحث الآخرين على إيجاد مواطن القوة في قصص النماذج العظيمة من البشرية كما ينجح في الوصول إلى الطهارة والقداسَة كما أنه يُجيد كبح الشهوات وممارسة ضبط النفس وفعل الخير، ولكن ما من شيء من تلك الأمور قد يُحضِر الإنسان إلى مسرح الحرية، فمع كل ذلك التقليد والممارسَة والالتزام ما زال هناك دافع خفي يُحركنا، فعندما أشعر بالخوف أحاول أن أتصرف بشجاعة، فالإنسان يُحاول التحلي بالجرأة نظرًا إلى شعوره بالخوف فنحن نفعل شيئًا ما هروبًا من شيءٍ آخر وعلى هذا كأننا نتحرك بشكلٍ دائري، فعندما نستعرض نماذج القديسين والأبطال نشعر بالخجل والعار بيننا وبين أنفسنا لأننا لم نحاول أن نصِل أو نرتقي إلى شيءٍ ما، وبناءً عليه تجدنا نحاول

التصرف على نحوٍ متواضع بسبب كبريائنا المجروح، وتجدنا أيضًا نُقدِم على فعل الخير بسبب حُبنا ذواتنا، تلك الرغبة اَلْمُلِحّة دائمًا التي تتمثل في أن تنجح الأنا في فعل شيءٍ ما، وربما حينها يكون المرء مُحِقًّا عندما يشعر بالمُتعَة بعد أن يصبح شخص جيد صادق بطلًا مُثيرًا للإعجاب، فها هو ذا يُحاول طمس ذاته من أجل تأكيد وجودها، وها هو ذا يبعد نفسه حتى يُحافظ على بقائها، فالمسألة برمتها عملية مُتناقضة.

إن العقل المسيحي مسكون بتلك الأفكار التي تهمس دومًا أن خطايا القديسين أعظم من خطايا المذنبين، وبطريقةٍ غامضة فإن الشخص الذي يُعاني ويُكافح من أجل الخلاص أكثر قُربًا من الجحيم ومن قلب الشر من ذلك السارق أو العاهرة، فلقد سُلم أن الشيطان ما هو إلا ملاك لا غاية له في خطايا الجسد وأن ما يقوم به ينتمي إلى تعقيدات كبريائه الروحي، ذلك النوع من الخداع الذاتي والنفاق والازدواجية الأخلاقية تجعلنا نرتدي المزيد والمزيد من الأقنعة، فنحن نميل إلى تلك القناعات التي تُشبع الأنا بدورها، ونحن بذلك أقرب إلى ذلك الشخص الذي يُفَضل الانفصال عن ذاته ليتأملها إلا أنه لا ينتبه إلى أن تلك التي يركلها بغتةً هي ذاته الواقفة في الخارج! فالإنسان يتعطش على الدوام لوجود دافع من أجل القيام بأمرٍ ما كما أن العقل الذي يؤمن بأن باستطاعته الهروب من اللحظة الراهنة لا يحيا حالة من الحرية، فالناس يسعون وراء الفضيلة للسبب نفسه الخاص بالرزيلة، ومن ثَم يبدأ الخير والشر بالتناوب كأنهما دائرة مفردة، فذلك القديس الذي غذَّا حبه الذاتي عن طريق العُنف الروحي محاه وأخفاه، لقد كان نجاحه الظاهري بمنزلة الخدعة التي أقنعت الآخرين أنه قد نجح في العثور على الطريق الصحيح ونتيجة لذلك اتبع الناس نهجه مدة طويلة حتى تأرجح إلى القُطب المُعاكس.

عندما تصبح الرخصة رد الفعل الحتمي للتحفظ والتزمت ستكون الطريقة الجبرية الأبرز على الإطلاق هي أن يعترف الواحد مِنا بأنه ما هو عليه وبأنه ما من مهرب أو انفصال عن تلك الحقيقة، يبدو الأمر وكأني عندما أشعر بالخوف أظل عالقًا فيه، ولكن في حقيقة الأمر إن أغلال الخوف تبدأ رحلتها في تكبيلي في تلك اللحظة التي أُقرر فيها الهرب من الشعور بالخوف، وعلى الجانب الآخر عندما

يُحاول الإنسان مواجهة شعوره فإنه لا يجد نفسه عالقًا في أي شيء، أو أنه يقوم بأي محاولة إصلاحية اللحظة الراهنة، وعندما يكون المرء واعيًا بهذا الشعور دون تسميته أو تعريفه أو وصفه بالشيء أو السلبي فإنه يتحول بسرعة غريبة إلى شيءٍ آخر، وتبدأ الحياة تتحرك بحرية أكبر لتمضي قُدمًا إلى الأمام، فما من سبيل حتى يُحافظ الشعور السابق على استمراريته مرة أخرى. يمكننا أن نعرف الآن أن العقل غير المُنقَسِم لا يهرب من الحاضر، فهذا ما يُعرَف بدائرة الشر، والحقيقة الأبعد هي أن العقل غير المُنقَسِم يتعامل مع التجربة بوصفها وحدة للعالم ذاته، وأن طبيعة الوعي هي الاندماج فيما يُعرَف بحالة الحب، ذاك الذي يُعَبّر عن نفسه بطريقة إبداعية تتجاوز مسألة الشعور اَلمُجَرَّد، فهي ليست شيئًا يمكنك أن تعرفه أو أن تشعر به أو أن تتذكره أو حتى أن تعرّفه، فالحب هو المفهوم المنظم المحدد الذي من شأنه أن يجعل العالم كونًا مستقلًا ويجعل تلك الجماهير المُفَكَكَة مجتمعًا، فهذا بدوره يُشَكل المكون الجوهري لشخصية العقل الذي يصبح واضحًا عندما يكون كاملًا لأنه يتعين عليه أن يهتم بشيءٍ ما حتى يستوعبه تمامًا كما المرآة التي تعكس دائمًا شيئًا ما، فهو لا يشعر بلذته الخاصة في انشغاله بنفسه تمامًا كما حالة المرآة فدائمًا ما تجده مُنشغلًا في امتصاص الأشياء والأُناس الآخرين واستيعابهم.

في واقع الأمر ليست هناك أي إشكالية فيما يتعلق بكيفية الحب، فنحن نُحِب، ونعرف كيف لنا فعل ذلك الأمر، ولكن المشكلة الوحيدة في اتجاه الحب سواء أنطلقت مُباشرةً كما ضوء الشمس أم انطلقت بشكلٍ غير مُباشر التي تنبع من دائرة محاولة حب الذات. إن العقل البشري يرسم الكون بأكمله داخل وحدته الخاصة كما قطرة الندى المفردة التي تبدو وكأنها تحتوي على السماء كلها في داخلها، فهذا بالأحرى وبدلًا من العاطفة المُجَردة يعد أساس معنى التصرف الحُر والأخلاقيات الإبداعية وقوتها.

على الجانب الآخر تعتمد أخلاقيات القواعد واللوائح على مبدأ العقوبات والمكافآت حتى لو كانت مسائل معنوية غير مادية أو ملموسة كما الشعور بالذنب أو مُتعَة الاحترام والتقدير الذاتي فجميعها أشياء لا علاقة لها بالتصرف الحُر، فهذه طريقة يستخدمها من يتحكمون في العبيد من خلال استغلال أوهامهم على النحوِ

الأمثل، الأمر الذي لا يمكنه أبدًا أن يقودنا إلى سبيل الحرية. إن الطريقة الفعالة الإبداعية لتلك العملية لا تتمثل في مناقشة ما علينا فعله أو الابتعاد عنه حتى نكون جيدين وأصحاء فالعقل المفرد الصادق لا يهتم أبدًا بكونه جيدًا، ولا يهتم بمعاملة الآخرين وفقًا لقانون معين، ولا يعنيه أن يكون حُرًّا أو أن يُحاول استعراض مهاراته حتى يُثبِت استقلاليته، فما يعنيه حَقًّا هو التعامل مع المشكلات والناس بشكلٍ واعٍ فهو لا يمتثل قواعد وقوانين محددة لكنه يلتزم بظروف اللحظة الراهنة كما أن تلك الأمنيات الجيدة التي يتمناها للآخرين لا تتمثل في الأمن لكنها تتجسد في الحرية، فلا شيء أكثر لا إنسانية حَقًّا من علاقات البشر التي تعتمد على الأخلاقيات! فعندما يُعطي أحدهم رغيفًا من الخبز لشخصٍ ما فإنه يفعل ذلك حتى يُوصف بأنه «شخص خيري مُحسِن» وعندما يعيش الرجل مع امرأة واحدة فإنه يفعل ذلك حتى يُطلِق عليه الآخرون اسم الزوج «المُخلِص»، وعندما يذهب أحدهم لتناول الطعام مع شخص من أصلٍ أفريقي فإنه يفعل ذلك حتى يقول عنه الآخرون إنه شخص «غير مُتَحيز»، وعندما يرفض آخر أن يقتل أحدهم فإنه يفعل ذلك حتى يُقال عنه إنه شخص مُسالِم! تلك الأمور جميعها توحي ضِمنِيًّا بالبرود والقسوة، فتصرفاتنا على هذا النحو تعني أننا لا نرى الشخص الآخر أصلًا! فنحن فقط نحاول فعل بعض الخير النابع من الشعور بالشفقة لذا نُبادر بأعمال الإحسان الخيرية ونحاول من خلالها إزالة المُعاناة لرؤيتنا مشهدًا مُثيرًا للاشمئزاز، فليس هناك وصفة معينة لتوليد الدفء الأصيل للحب.

لا يمكن نسخ الحب، وكذلك لا يمكننا التحدث عنه أو إثارته عن طريق إجهاد عواطفنا ومشاعرنا إلى أقصى حد مُمكن، أو من خلال أن نُكرس حيواتنا من أجل خدمة البشرية، فالجميع يملك الحب بالفعل إلا أنه لا يظهر إلى الخارج في تلك الأثناء التي يقتنع فيها بمدى استحالة محاولته أن يحب نفسه، فهذا لا يأتي من خلال الإدانات والاستنكارات وكراهية النفس وإطلاق الأسماء السيئة عليها، ولكنه يظهر فقط عندما نُدرك جيدًا كيف يمكننا أن نُحب أنفسنا ونقدرها كما ينبغي.

مراجعة المعتقدات

بدأنا هذا الكتاب بافتراضنا أن العلم وفلسفته لا يسمحان بوجود مكان للمعتقدات الدينية، ونحن لسنا نتجادل في تلك النقطة، ولكننا نستهدف النظر إليها بعدّها نقطة انطلاق، فلقد تبنينا وجهة النظر السابقة الخاصة بوجود الإله أو أي أمور مطلقة، واتفقنا على أن أي نظام أبدي يتجاوز حدود ذلك العالم يفقد معناه ومنطقيته، لقد تقبلنا مفهوم أن أفكارًا كتلك لا قيمة لها بالنسبة إلى التنبؤ العلمي وأنه من الممكن شرح تلك الأحداث المعروفة كافة ببساطة دونهم، وفي الوقت نفسه نقول إن الأديان ليست بحاجة إلى معارضة هذا الرأي فمعظم التقاليد الروحية تعترف بأن هناك مرحلة ما خلال تطور الإنسان يُدرك فيها أن عليه وضع معتقداته الآمنة تلك وراء ظهره مع الأخذ في الحسبان أن هناك تناقضًا بين المُعتقد والإيمان.

بعد استعراضنا تلك النقطة يمكننا القول إننا لم نزعم أي شيء لا يمكننا التَحقُق منه عن طريق التجربة، وكذلك لم نثر أي شيء يتناول صراعًا حقيقيًا مع وجهة النظر العلمية للعالم حولنا، ولقد وصلنا إلى منطقة مكنتنا من محاولة جعل الأفكار الدينية وتلك الخاصة بالميتافيزيقا التقليدية أكثر مادية وجدوى ومنطقية، وليس بتلك الطريقة التي تناولتها فيها الأديان، لكن ذلك كان عبر رموز لخبرة العلم والدين التي تتحدث عن الكون نفسه بلغاتٍ مختلفة، وبشكلٍ عام فإن لخطابات العلم علاقة بالماضي والمستقبل، فالعلماء يصفون الأحداث ويفسرون طريقة حدوثها عن طريق إعطائنا بيانًا ووصفًا تفصيليًا لما وقع في السابق.

لقد لاحظ العلم تلك الطريقة التي تقع بها الأحداث وفقًا لتردداتٍ وأنظمة مختلفة متنوعة، ومن هذا المُنطَلق بدأ وضع الرهانات والتوقعات في ضوء ما يمكن فعله من الترتيبات والتكيفات مع الأحداث، وحتى يمكنه المُضي قُدمًا في ذلك الأمر فإنه ليس بحاجة إلى معرفة الرب والحياة الأبدية، فكل ما هو بحاجة ماسة إلى معرفته هو الماضي أو ما حدث بالفعل منذ وقتٍ سابق، ومن الناحية الأخرى فإن لخطابات الدين علاقة بالزمنِ الحاضر، ومع ذلك فإن كلًا من رجال العلم والدين يظنون أن للدين علاقة فقط بالماضي والمستقبل، إساءة الفهم المنطقية تلك نشأت لأن الدين يبدو على الدوام وكأنه يقدم تأكيدات حول بداية الخلق وكيف سينتهي وربط المسألة عقودًا زمنية طويلة بما أطلق عليه اسم «النبوءات» التي تُشبه «التنبوءات»

والتي تنص على أن الله هو مَن خلق هذا العالم وأنه أوجده لغرضٍ ما سيتحقق في المستقبل البعيد.

في تلك الحياة الآخرة التي لم تأت بَعد. إن الدين يُصِر على أن الإنسان يتمتع بروحٍ خالدة وأن تلك النبوءات سوف تنقذه من الموتِ الجسدي حتى يعيش إلى الأبد، ومن جانبهم يرى العلماء أن تلك التبريرات غير منطقية بدورها وأنه لا جدوى من طرحها على الإطلاق فما من سبيلٍ للتحقُق منها إذ إنها صُنعت اعتمادًا على مرجعية ثمينة تعود إلى أحداث الماضي المعروفة التي وقعت بالفعل، وعندما يحاول العلم اكتشاف تلك الأسباب والمُبررات التي اعتمدت عليها يجدها عاطفية أكثر من كونها عقلانية رشيدة.

إن الأناس المتدينين يميلون إلى الإيمان والاعتِقاد أن تلك الأشياء سوف تستحيل أمورًا حقيقية مع أن تاريخ كل ديانة مهمة قد كشف عن وجود أولئك الناس الذين يفهمون الأفكار والبيانات الدينية والنصوص بطريقةٍ أخرى مختلفة تمامًا، على العموم فإن هذا يعد حقيقيًا للشرق أكثر من الغرب، ومع ذلك فإن التاريخ المسيحي يشتمل على قائمة طويلة من الرجال والنساء الذين تحدثوا عن أرضية مُشترَكَة مع الهندوس الأرثوذكس والبوذيين، فعندما نضع الآخر نصب أعيننا نستطيع الحصول على وجهة نظر أكثر عُمقًا، فالدين ليس نظامًا يعتمد على التنبوءات فلا علاقة لتعاليمه وعقائده بالمستقبل لكنها ترتبط بالحاضر والترسيخ لفكرة الخلود والأبدية، فالدين ليس مجموعة من الآمال والمعتقدات ولكنه على النقيض يشتمل على مجموعة من الرموزِ المُصَوَرَة حول التجربة الراهنة اللحظية بشكلٍ تقليدي، كما أن هناك نوعين لتلك الرموز، فالنوع الأول يصف طريقة الدين في فهم الحاضر عن طريق الاستعانة بالصور والقصص الملموسة كما أن الطريقة الثانية تتمثل في النظر إليه بشكلٍ مُجَرَد عن طريق استخدام اللغة السلبية التي هي على غِرار لغة الفلسفة الأكاديمية، وعلى سبيل التيسير يمكننا تسمية تلك الأنواع، النوع الديني والميتافيزيقي، ولكن علينا أن نتذكر أن الميتافيزيقا بهذا المعنى ليست فلسفة تأملية فهي ليست محاولة لتوقع العلم وإعطاء وصف منطقي للكون وجذوره ونشأته فهي طريقة لتقديم معرفة الزمن الحاضر، فالرموز الدينية هي سمات مُميزة للمسيحية

Telegram:@mbooks90

والإسلام واليهودية في حين أن تعاليم النوع الشرقي أكثر ميتافيزيقية.

لقد ذكرنا في السابق أن كلًا من العلم والدين يتحدثان عن العالم نفسه ومن خلال هذا الكتاب الموجود بين أيدينا الآن فنحن لا نُناقِش أي شيء سوى الحياة اليومية والأشياء التي باستطاعتنا رؤيتها والشعور بها واختبارها، وعلى هذا فقد أُخبرنا من قبل النقاد الدينيين أننا متهمون بتقليص الدين إلى حد مرحلة «الطبيعية» التي تعني تعريف الله بالطبيعة، وأننا بذلك نهزأ ونسخر من الأديان عن طريق سَلب ذلك المحتوى الخارِق للطبيعة منها، وفي تلك اللحظة التي تسأل فيها علماء الدين عما يقصدونه بقولهم بكلمة «الخارِق للطبيعة» تجدهم ينفجرون على الفور مُتحدثين بلغة العلم! فهم يقولون إن الإله يمتلك واقعًا ملموسًا مُنفصلًا عن ذلك الكون الذي نحيا فيه كما أنهم يتحدثون عنه في ضوء أحداث التاريخ الماضي وتنبوءات المستقبل، إنهم يُصرون على القول إن ذلك العالم الخارِق لا يتكون من النظام الكوني نفسه الذي درسه العلم وأنه يوجد في مستوى آخر غير مرئي يستعصي على حواسنا الطبيعية إدراكه واستشعاره، يبدو الأمر روحيًا تمامًا كما ظواهر التخاطر الذهني وقراءة الطالع لكن تلك الطبيعية واضحة وبسيطة حتى أنها قد تبدو علمًا زائفًا فالعلم والطبيعة ليسا مَعنيين فقط بتلك الأشياء المرئية بالنسبة إلى الحواس، وما من أحد على الإطلاق يُمكنه رؤية الإلكترونات أو الكوانتا! وكذلك ما من أحد يمتلك القدرة على بناء صورة جِسية للفضاء المُنحني، وعلى الجانب الآخر إذا وجدت ظاهرة روحية ما فليس هناك أي سبب ليجعلنا نفترض أنه لا يمكننا دراستها من الناحية العلمية، أو أنها لا تعود جزءًا من الطبيعة، فالعلم يهتم بأشياء كثيرة لا تُحصى ولا تُعَد لا يمكن اختبارها عن طريق الحواس ولا تعيش اللحظة الفورية الراهنة مثل الماضي بأسره وعملية الجاذبية وطبيعة الوقت وأوزان الكواكب والنجوم، فالأشياء غير المرئية تخضع للاستدلال اللحظي عن طريق المنطق، فهي مجرد افتراضات تُعطي تفسيرًا معقولًا للظواهر الملحوظة، وتعد مسألة الإله اللاهوتي الشيء نفسه تقريبًا، فهي مجرد افتراضات تُراعي جميع التجارب والخبرات، ولكن علينا القول إن رجل الدين عندما يفترض افتراضًا كهذا فإنه يستخدم طرائق العلم وأساليبه كما أنه يدخل ميدانه ومن ثَم فإنه يفترض به تقديم التوقعات وأن يستجوبه زملاؤه من

علماء الطبيعة ويفحصونه وينتقدونه، ولكن الاختلاف بين الطبيعي والخارق يظهر بشكلٍ واضح بسيط فإذا كانت الطبيعة اختصاص العلم وتُسمى وتُقاس وتُصنف، فإنها كذلك هي العالم الذي يحلله الفِكر ويصنفه إلى مجموعات تحمل أسماء أشياء مختلفة، فكما رأينا أن مسألة إعطاء الأشياء هوية يأتي من خلال تسميتها وهذا بدوره يُميز الحركة عن السكون عن طريق مُقارنة شيءٍ يتحرك بسرعة بشيءٍ آخر يتحرك ببطء مع أن كليهما يتحرك، وعلى هذا فإن عالم الطبيعة بصورته الكلّية نسبي كما أنه نِتاج الفِكر والقياس، وانطلاقًا من تلك الفكرة دعونا نتساءل بعَجَب هل يعَد الرأس مُنفَصِلًا عن الرقبة حقًا؟ فلماذا لم نقل مثلًا إن ذلك الشيء الذي أطلقنا عليه اسم «الرأس» يشمل ذلك الشيء المعروف باسم «الرقبة» تمامًا كما يشمل اللفظ الأول الأنف؟ فالمسألة وما فيها أن تلك هي مجرد اتفاقية فكرية أن الرأس والرقبة شيئان بدلًا من شيء واحد، وبهذا المعنى يمكننا القول إن الميتافيزيقيين القدماء كانوا قد أصابوا بشدة عندما قالوا إن الكون بأسره نتاج العقل، والمعنى المقصود بذلك هو «كون الأشياء».

على الجانب الآخر فإن العالم الخارِق والمُطلَق يتكون من الواقع الغامض الذي نسميه بدورنا ونصنفه ونقسمه، فهو ليس نِتاج العقل ولكن ما من طريقة لتعريفه ووصفه، فنحن على وعي بكل لحظة وهذا من شأنه أن يُكوِن وعينا كما أننا نشعر بكل لحظة وهذا المسؤول عن وجود مشاعرنا وأحاسيسنا، ولكن أن تبذل قصارى جهدك في محاولة تعريف ذلك أشبَه بأن تجعل السكين تقطع نفسها! فإذا سألت على سبيل المثال قائلًا: ما هذا الشيء؟ ووجدت أحدهم يُجيبك: هذة وردة، لكن الوردة هي جزء من الصَخَب، وما الصَخب؟ هو تأثير موجات الهواء في طبلة الأذن، إذًا هل يمكننا القول إن الوردة هي تأثير موجات الهواء في طبلة الأذن؟ الإجابة لا، فالوردة هي الوردة، والتعريف ببساطة شديدة هي عملية تطابق بين مجموعات من البيانات الحسية وصور الصَخَب، ولكن لأن طبيعة الضوضاء تشتمل على بياناتٍ حسية فإن المحاولة تأخذ طابعًا دائريًا، يجدر بنا القول إن العالم الحقيقي يزود البيانات والأدوات التي تُمكننا من استشعار ذلك الغموض، وانطلاقًا من ذلك المبدأ فإننا لا نجد صعوبة في فهم النصوص القديمة، فكتاب تعاليم بوذا على سبيل المثال هو

مجموعة من أقواله وتبدأ بما يأتي:

«كل ما نحن فيه هو نتيجة أفكارنا، فكل شيء شُكّل في داخلها وبفضلها»، واستخدم المعنى نفسه تقريبًا في افتتاحية إنجيل يوحنا:

«في البدءِ كان الكلمة، والكلمة كان عند اللهِ، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كلّ شيء به كان، وبغيره لم يكن شيئًا مما كان».

ومن هنا يُمكننا الاستنتاج أننا نستطيع تمييز الأشياء أو صناعتها عن طريق الأفكار والكلمات الذهنية وحدها، ودون الأفكار لن يكون هناك أشياء سيكون هناك فقط واقع غير مُحَدد غير قابل للتعريف، فإذا أردت أن تكون شاعريًا عليك أن تربط بين هذا الواقع غير المُعَرَف وبين الأب لأنه جوهر الأشياء، كما أنك حينها ستسمي الفكرة بالابن المرتبط بالأب، ذلك الذي كان كل شيء، ومن ثَم فمن المفترض أن يُصلب هذا الابن حتى تتسنى لنا رؤية الأب تمامًا بتلك الطريقة التي ننظر بها إلى الواقع دون كلمات تساعدنا على رؤيته كما هو أمامنا، وبالتالي نهض الابن من موته لاحقًا وعاد إلى السماء، فنحن أيضًا نمتلك كل الحرية في استخدام أفكارنا دون أن نسمح لها بخداعنا، فنحن نفهم مسألة «العودة إلى السماء» بعدّها جزءًا من الواقع ولم نرها شيئًا ما يقف خارج ذلك المشهد الواقعي وبناءً عليه عكفنا على استخدام اللغة السلبية الميتافيزيقية لهذا العالم غير المُحَدد.

فنحن هنا بصدد النظر إلى الكون اللا نهائي وليس ذلك المحدود، تلك الصورة الأبدية الخالدة الحاضرة دائمًا، تلك التي لا ترتبط بالماضي أو المستقبل، فالأمر لا يتعلق باتفاقيات الفِكر والزمن، تلك العملية الثابتة التي لا تكون فيها أفكار التغيير إلا كلمة أخرى أو تعريفًا آخر يُطلِق عليها الواقع اسم تجاوز التغيير، فإذا أصبحت كل الحركة نسبية بوضوح لن يكون هناك حركة مُطلَقَة، سيكون من غير المُجدي أن نقول إن كل الأجساد داخل الكون تتحرك بشكلٍ مُوَحَد لأن جميعها قد استبعدت أي جسم آخر، ومن هنا يمكننا أن ننظر إلى حركة اللغة الميتافيزيقية على أنها سلبية لأنها تحاول أن تقول إن الكلمات والأفكار لا تشرح الواقع، فهي لا تحاول أبدًا إقناعنا أن الواقع شيء أشبَه بكتلة هائلة غير محدودة من الهُلام الشفاف، وهي أيضًا لا تتحدث

عن التجريدِ غير المَحسوس لكنها على الأحرى تتحدث عن هذا العالم الذي نعيش فيه، تلك الخبرة والتجربة التي تجعلنا نسمي الأشياء والألوان والروائح والأصوات والأذواق والنكهات والأشكال والأوزان، تلك التي هي في حد ذاتها لا شيء على الإطلاق، فهي لا تُمَثِل رقمًا أو شكلًا، لا تُشَكِل إلا اللحظة التي نختبرها التوّة ومن ثَم فنحن ننظر إلى الإله وفقًا لتلك التقاليد الموروثة التي تعرّفه على أنه ذلك الواقع اللا نهائي العديم الشكل الخالد الأبدي غير المُنقَسِم غير المُتَغير الثابت- ذلك المُطلَق القابع خلف النسبي كما المعنى المتخفي وراء الكلمات والأفكار.

أود أن أقول في هذا السياق إن المعنى في حد ذاته هو أمر دون جدوى أو قيمة على خلاف الكلمات، فهو لا يملك معنى آخر إلا ذلك المتفق عليه، الشجرة مثلًا لا معنى لها إلا هذا الذي اتفقنا على استخدامه بيننا بهدف تعريفها وتحديدها، فمن السهل جدًا أن تقودنا الأشكال الدينية والميتافيزيقية إلى حالة من سوء الفهم، فعندما يحيا العقل حالة من الانقسام ترغب الأنا في ترك التجربة الحالية الراهنة وتتمثل الفكرة العامة للعالم الخارِق في مخبئه السعيد، فالأنا تقاوم التغيير غير السعيد وتتشبث بالمُطلَق غير المُتَغير وتنسى أنه ليس ثابتًا! فعندما تزودنا الحياة بتجربة مريرة لا يمكن للذات تجاوزها إلا عن طريق تبرير أنها جزء من خطة الرب المُحِب، ولكن هذا الضمان يؤكد استحالة بلوغ محبة الرب المنشودة كما هو معروف إلا عن طريق التخلي عن الأنا.

إن سوء فهم الأفكار الدينية يتجلى فيما صنعه البشر فيما يتعلق بعقيدة الخلود والجنة والنار، ولكن من المفترض أن يكون واضحًا الآن أن الحياة الأبدية هي إدراك أن الحاضر هو الواقع الوحيد بين أيدينا، وأنه يمكن تمييز الماضي والمستقبل عنه بالمعنى الكلاسيكي التقليدي وحده، فعندما نتحدث عن تلك اللحظة التي سيظهر فيها باب الجنة ويظهر فيها «الصراط المستقيم» الذي سيرشدنا إلى الحياة نجد أن ذلك الوقت لا يخضع أبدًا لاختباراتِ اللحظة الراهنة الفورية، فالرجل الثري لن يتمكن من الوصول إلى ذلك الباب نظرًا إلى أنه يحمل الكثير من الأمتعة فهو يتشبث بدوره بالماضي والمستقبل، وبمقدور المرء أن يقتبس صفحات كاملة من الأدب الروحي لكل العصور والأزمنة التي توضح أن من الممكن فهم مفهوم الحياة الأبدية الخالدة

من المنظور الآتي الذي استعرضه الفيلسوف وعالم اللاهوت إكهرت:

إن اللحظة الآنية هي تلك التي خلق خلالها الإله الإنسان الأول كما أنها تتمثل في تلك التي سيختفي فيها الإنسان الأخير، فكل تلك اللحظات تُمَثِل الآن! عليك أن تعلم أن الإنسان الذي يعيش في نور الرب لا يحيا حالة من الوعي بالماضي أو المستقبل، فليس باستطاعته الحصول على أي فرصة تنتمي إلى أحداث المستقبل، وذلك لأنه يعيش في اللحظةِ الراهنة على نحو ثابت بلا كَلل أو مَلل، فهو يَنعَم بتلك الخضرَة الربيعية التي كست طريقه مؤخرًا. عندما تحتضر وتعود إلى الحياة في كل لحظة فربما يكون هناك بعض التنبوءات العلمية التي لن تُشَكِل فارقًا كبيرًا فيما سيحدث بعد الموت، فالمجد كله يتمثل في أننا لا نعرف على الإطلاق ما الذي سيحدث، فأفكار البقاء والفناء تعتمد على حدٍ سواء على الماضي وذكريات النوم والاستيقاظ بطرائقها المختلفة ومفاهيم التواصل الأبدي واللا وجود الأزلي العديمة المعنى، إن الأمر يتطلب القليل من الخيال حتى يُدرِك المرء أن الوقت الأبدي ما هو إلا كابوس وحشي، فما بين الجنة والنار لا يوجد خيار آخر كما هو شائع في أذهان الجميع، ومع أن الرغبة في الاستمرارية تبدو دائمًا جذابة ومُثيرة تحديدًا عندما يفكر الواحد مِنا في الوقت اللا نهائي غير المحدود بدلًا من الوقتِ المُحدود، ومع ذلك فإنه ما من مَرح ومُتعَة حقيقية ملموسة تكمن في الاستمرارية والمواصلة، فنحن نرغب في ذلك فقط لأن حاضرنا يشهد حالة من الفراغ، فالشخص الذي يحاول أكل المال بشراهة طيلة الوقت هو إنسان جائع على الدوام، وعندما يقول له أحدهم «آن الأوان لتتوقف» يشعر بغتةً بنوبة من الهلع، وذلك لأنه لم يعد لديه ما يأكله فهو لا زال يرغب في تناول المزيد والمزيد من المال آملًا الحصول على الرضا في القريب، فنحن لا نرغب في الاستمرارية في واقع الأمر لكننا بالأحرى نتوق إلى اختبار تجربة راهنة للسعادة الكاملة. إن فكرة الرغبة في استمرارية التجربة مرارًا وتكرارًا تأتي نتيجة الوعي الذاتي في تلك اللحظة، ومن ثَم تؤدي إلى عدم إدراكها بشكلٍ كامل، وما دام هناك شعور بأن الأنا تختبر تلك التجربة فلا يمكن للمرء أن يعيش لحظته الآنية على الإطلاق، فالحياة الأبدية لن تصبح مفهومة لنا إلا إذا تلاشى أثر الاختلاف الأخير بين الأنا والآن، ولن يتم ذلك إلا إذا كان هناك اعتراف باللحظة الحالية وليس

أي شيء آخر، وفي المقابل فإن الجحيم أو اللعنة الأبدية لن تستمر على الدوام لكنها تتمثل في تلك الدائرة المنقطعة من الاستمرارية والإحباط من أجل المضي قدمًا سعيًا وراء شيء ما لن يتحقق، فالجحيم هو أحد وجوه الحماقة وهو أقرب إلى الاستحالة الأبدية للحب والوعي والتَمَلُّك الذاتي، فهي أشبَه بمحاولة رؤية المرء لعينيه واستماعه إلى أذنيه وتقبيله شفتيه.

عندما ترى أن الحياة كاملة غير مُنقسمة وجديدة دائمًا تتفهم إحساس العقيدة القائل إن الحياة الأبدية تتمثل في الإله المسؤول الكلي والسبب النهائي لوجود أي شيء، لأن المستقبل هو مسألة بعيدة المنال تمامًا كما تلك الجزرة المُعَلَقة أمام الحمار، فإن تحقيق الغرض الإلهي لا يكمن في المستقبل لكنه يرتبط بالزمنِ الحاضر، ولا نعني بذلك الاستسلام للحقائق الثابتة، ولكن في رؤية أن معنى الكون الذي حرصت المفاهيم الدينية على ذكره بشكلٍ مُتَكرر يتمثل في ذلك المبدأ الشائع القائل «حتى تعرف الإله عليك أن تتخلى عن ذاتك»، ولكن السؤال البدهي هنا كيف للذات التي تتحلى بطبيعتها بالأنانية التخلي عن نفسها؟ فنحن هنا لا نتحدث عن قوة علماء الدين، ولكننا نتحدث عن حدوث ذلك عبر النعمة الإلهية التي تمنح المرء القدرة على تحقيق ما يتجاوز حدود قوته، وهذا يجعلنا نتساءل بدورنا: عندما تُمنح تلك النعمة لأشخاص مُختارين مُحددين ألا يكون أمامهم خيار سوى تسليم أنفسهم؟ فالبعض يقول إن الأمر يتعلق بالجميع لكن هناك مَن يتقبلون مساعدة تلك القوى وهناك مَن يرفضونها، والبعض الآخر يقول إنها لا تأتي إلا للشخص المُختار، ومع ذلك يصرون على أن هذا الشخص يملك أخذ السلطة أو تركها لكن هذا لا يحل المشكلة على الإطلاق، إن مسألة الاحتفاظ بالذات أو إخضاعها تحل محل قبول تلك النعمة الإلهية أو رفضها كما أن المشكلتين متطابقتان، فالدين المسيحي يشتمل على إجابة خفية للمشكلة الفكرية التي تقول إن المرء يمكنه إخضاع ذاته فقط من أجل «المسيح»، فالأخير يرمز إلى الواقع وعلى هذا ليس هناك ذات مُنفصلة لإخضاعها، فمسألة التخلي عن الأنا هي مشكلة وهمية وفكرة المسيح نفسها جاءت تأكيدًا أنه ما من وجود للذات المُنفصلة، فأنا والأب شيء واحد في تلك الحالة وهذا يتماشى مع ما جاء في الكتاب المقدس «وقبل أبراهام كنت أنا». فإذا كانت هناك أي مشكلة سنجد

في تلك الحالة أنه ما من «أنا» حتى يمكن للمرء إخضاعها، فأنت تتمتع بكامل الحرية لتفعل ذلك في أي وقت، وما من شيءٍ بإمكانه إيقافك، فهذة حريتنا ومع ذلك نحن لا نتمتع بالحرية التي تسمح لنا بتطوير أنفسنا أو إخضاعها أو إبقائها مُنفَتِحَة على استشعار النِعَم! وعلى أي حال فإن تلك الحالة من الانقسام العقلي دليل واضح على إنكار حريتنا وتأجيلها كأن تحاول أن تأكل فمك بدلًا من رغيف الخبز، فمن الضروري التشديد على الاختلاف الشاسع بين إدراك مسألة أنني والأب الروحي شخص واحد وبين تلك الحالة العقلية التي تجعل الشخص يظن نفسه الإله! فهذا يعني أنك تعرّف تلك الأنا «المُنعزلة» وربطها بالإله، ومن ثّم تصبح بدورك شخصًا مهووسًا بالأنا وستظن ذاتك قادرًا على النجاح في تحقيق المستحيل والهيمنة على التجربة والسعي إلى ملاحقة الدوائر المفرغة من أجل الحصول على استنتاجات مُرضية تلك التي يتغنى بها المرء قائلًا:

أنا سيد مصيري

أنا قائد روحي

فعندما يبتلع الثعبان ذيله يتورَم رأسه بغتة، تلك مسألة أخرى عندما يرى الإنسان أنه مَن يُشَكِل مصيره الخاص وأنه ما من وجود لشيء آخر يمكنه التغلب عليه أو حُكمه أو إخضاعه، ولكن هل علينا أن نظن أن توحد الأنا مع الإله ليس هرطقة صوفية يتم خلالها طمس ملامح قيم الشخصية؟ فالأنا لم تكن ولن تصبح يومًا جزءًا من الشخصية الإنسانية، فما من شيء فريد أو مختلف أو مُثير حول ذلك، على النقيض فكلما سعى الجنس البشري خلف ذلك أصبحت شخصيات البشر أكثر تجريدًا وتوحدًا بشكلٍ يخلو من عناصر الإثارة والمُتعَة وتحركوا داخل دوائر مفرغة، وسرعان ما يتحولون إلى أناس غير مُميزين طُمِسَت ملامحهم للأبد.

من البدهي القول إن أكثر الناس إثارة للاهتمام أولئك الذين يُعَبرون عن اهتمامهم إزاء الأمور بشدة، وحتى يتحقق ذلك الشرط على المرء أن ينسى تلك الحالة من الانفصال التي تحياها الأنا، ومن ثَم يمكننا أن نرى أن مبادئ الفلسفة والدين والميتافيزيقا تُفهم من خلال طريقتين مختلفتين، ويمكننا النظر إليها بوصفها رموزًا

للعقل المُستقل وتعبيرات عن الحقيقة، ففي كل لحظة يتم تناول الحياة كونها تجربة كُلية كاملة تامة.

إن لفظ الإله لا يعد تعريفًا لتلك الحالة لكنه تعبير تعجبي عنها، وبشكلٍ عادي تُستخدم بوصفها محاولات لمُراقبة الإنسان نفسه والكون لاستيعابه والسيطرة عليه، ويجدر بنا الإشارة إلى أن العملية دائرية، وبصرف النظر عن كونها معقدة وملتوية فإن البشر قد اعتادوا الدوران على غير هُدى عصورًا زمنية طويلة، لقد فشلت قوى التكنولوجيا في الحفاظ على الجهد القليل المبذول في إسراع وتيرة العملية إلى نقطة التوتر غير المُحتَمَل، فالحضارة جاهزة للتحليق بعيدًا عن طريق قوى الطرد المركزية الهائلة، وفي مأزقٍ كهذا لا يصبح ذلك الشكل الديني التقليدي الذي يشهد حالة من الوعي الذاتي اعتدناها العلاج بل يستحيل جزءًا من المرض! فلو أن الفِكر العلمي قد شهد حالة من الضعف فنحن لسنا بحاجة إلى الندم لأن الإله الذي أحضرنا إلى هذا العالم لن يُمَثِل بدوره صورة تلك الحقيقة الخفية التي يُستدل عليها عن طريق الأسماء لأن صورته حينها ستصبح إسقاطًا لأنفسنا وحينها فقط سوف تتمكن الأنا في حلتها الكونية المُجَرَدَة من فرض سيطرتها على الكون.

في الواقع، إن روعة العلم لا تتمثل أبدًا في قدرته على التسمية، والتصنيف والتسجيل والتنبؤ، ولكنها تكمن في قدرته على اكتشاف الحقائق ورغبته الحثيثة في معرفتها بغض النظر عن النتيجة التي سيصل إليها في نهاية المطاف، وبصرف النظر أيضًا عن هذا الكَم من الارتباك والخلط بين الحقائق والاتفاقيات والأعراف والواقع عن طريق تلك التقسيمات الاعتباطية، فخلال تلك الحالة من الانفتاحية والشفافية التي يعيشها العقل والتي تحمل بعض التشابه مع الدين نفهم بمعنى أعمق أن عظمة العالِم كلما زادت زاد إعجابه بجهله عن الواقع وإدراك قوانينه وتعريفاته وأوصافه ومفاهيمه نِتاج فكره الخاص، إنها تساعده على استخدام العالم لأغراضٍ استنباطية بدلًا من فهمه وشرحه، فكلما تَمَكّن من تحليل الكون إلى كميات مُتناهية الصِغر استطاع أن يجد الكثير من الأشياء التي تستطيع تصنيفها وأدرك نسبية تلك التصنيقات مُجتَمِعَة.

يمكننا القول هنا إن تلك الأشياء التي يجهلها تبدو أنها تزيد تلك المتوالية الهندسية الخاصة بما يعرفه، وإذ به يتقدم بثباتٍ نحو تلك النقطة التي تقول إن المجهول ليس تلك المساحة الفارغة المجردة داخل شبكة الكلمات بل هو نافذة داخل العقل التي لا تحمل بدورها اسم الجهل ولكنها تحمل اسم «الدهشة»، على الجانب الآخر نجد أن العقل المُتَرَدد هو الذي يغلق نافذته مُطلِقًا ضجيجًا مدويًا، كما أنه يلتزم الصمت حيال تلك الأشياء التي يجهلها ولا يُفَكِر فيها على الإطلاق، ويُثَرثر على الدوام فيما يخص تلك الأمور التي يعتقد أنه يعرفها، ومن ثَم تجده يملأ ذلك الفضاء المجهول فقط بتكرار ما اكتشف من قبل بالفعل ولكن العقل المُنفَتِح يعرف جيدًا أن الأرض التي تكتشف بدقة ليست معروفة على الإطلاق ولكنها هي تلك التي لوحظت وقيست آلاف المرات! إن المُثير حقًا في تلك الرحلة الاستكشافية المُمتعة هو أن تشعر بأن ما عرفته في نهاية المطاف «يُحفزك على مزيدٍ من التفكير» بتلك الطريقة التي ينسى بها العقل كيف يسير بشكلٍ دائري لا جدوى منه وحينها أيضًا يتوقف عن السعي وراء هوسه الخاص ويصبح مُدركًا تمامًا أن مُعايشته اللحظة الراهنة معجزة لا تشوبها شائبة.

هناك طرائق عديدة وإن شهدت القليل من الاختلاف فيما يخص ذلك في الفلسفة الشرقية والغربية على حدٍ سواء، فالكتاب الهندوسي مثلًا يقول إن ذلك الشخص الذي يرى الإله شيئًا غير مفهوم قادر على فهمه واستيعابه من خلال اكتشافه الخاص لاحقًا لكن هذا الذي يظن أن الإله أمر مفهوم واضح غير قادر على فهمه، فالإله غير معرف لأولئك الذين يدعون معرفته ويعد أمرًا معروفًا لأولئك الذين يُحاولون البحث عنه ومعرفته. ومن جانبه قال الشاعر الألماني جوته في هذا السياق بعض الكلمات التي قد تبدو بسيطة للعقلِ الحديث العصري:

«إن الدهشة هي أقصى ما يمكن للمرء تحقيقه، فإذا نجحت الظاهرة الأولى في إشعاره بها ليكون راضيًا تمام الرضا فما من شيءٍ أكثر سموًا ورفعة، وعليه أيضًا ألا يحاول السعي وراء شيء إضافي، فهذا هو غاية الآمال البعيدة».

كما أن القديس يوحنا الصليب عبر عن ذلك أيضًا ويعد أبرز العرافين في التراث

المسيحي وقال:

«إن أحد أبرز النِعَم التي تتمتع بها الروح في ذلك العالم المؤقت هو قدرتها على الرؤية بوضوح والشعور بعُمق إذ ليس باستطاعتنا استيعاب الإله على الإطلاق، فتلك الأرواح الموجودة هنا أشبَه بالقديسين في السماء، فأولئك الذين يعرفونه جيدًا يُدركون فعلًا أنه لا يُمكن استيعابه بشكلٍ لا نهائي لكن أولئك الذين يملكون رؤية أقل لا يمكنهم إدراك ذلك ولا يعرفون مدى عظمة استطاعة الإله على تجاوز رؤيتهم المحدودة بشكلٍ مُذهِل حيث ما من شعورٍ بالجوع فهناك الاكتفاء فحسب، وباستطاعة أي شخص معرفته في تلك اللحظاتِ النادرة التي تباغتنا فيها صورة للجمالِ المُربِك أو غرابَة المشهد التي من شأنها أن تجذب العقل بعيدًا عن سعيه الذاتي وتجعله وهلة من الزمن عاجزًا عن إيجاد الكلمات للتعبير عن شعوره اللحظي، سنكون أكثر حظًا إذا عشنا في عالم تتمكن فيه المعرفة الإنسانية من تجاوز مداها إلى هذا الحَد الذي يجعلنا نعجز أن نُعَبِر بالكلمات ليس فقط عن تلك الأشياء الغريبة والمُذهلة وحدها ولكن حيال تلك الأشياء العادية أيضًا، فإن ذرات الغبار المُكَدسَة فوق الرفوف على سبيل المثال لا تقل غموضًا عن تلك النجومِ البعيدة، فنحن نعرف كليهما بشكلٍ كاف إلى هذة الدرجة التي تجعلنا ندرك أننا لا نعرف أي شيء عن أي منهما!

لقد كان العالم الفيزيائي ادنجتون مثلًا أقرب إلى الصوفيين ليس فيما يتعلق برحلاته الخيالية ولكن اتضح ذلك حين قال ببساطةٍ شديدة ما يأتي: «ثمة شيء ما غير معروف يقوم بتلك الأشياء التي نجهلها وهذا اعتراف أن تلك الفكرة تعد تأكيدًا لمسألة الدائرة المُكتملة، ونحن وسط ذلك نتصرف كما الأطفال مُجددًا، فلا زلنا نحاول أن نقدم شروحًا لتلك الأشياء حولنا كمحاولة لتأمين مياة الحياة داخل الأوراق والخيوط».

إن هذا الاعتراف في حد ذاته لا يُشير إلى أي شيء إلى سوى الهزيمة، وبالنسبة إلى الآخرين فإن مسألة أن تلك الفكرة توحي باكتمالِ الدائرة هي كَشف عما يفعله الإنسان في ميادين الفلسفة والدين والخيال العلمي وعلم النفس والأخلاق وفي

كل يوم معيشي، لقد صمم عقله على الدخول في تلك الدوامة من الأفكار من أجل الابتعاد عن ذاته وكذلك من أجل الإمساك بها في الوقت نفسه. علينا أن نختتم حديثنا هنا بأن اكتشاف العقل تلك الحقيقة يجعله كاملًا تامًا وحينها فقط تغيب تلك الحالة من الانقسام بين الذات والعالم حولها، وكذلك تُزال تلك الحواجز بين المثالي والواقعي وتصل إلى نهايتها الحتمية كما أن حالة البارانويا التي يشهدها العقل والتي تعني أن يحيا الأخير إلى جانب ذاته وكأنهم منفصلون تستحيل إلى حالة ميتانويا أو تحول روحي يتوحد فيه العقل مع ذاته ويتحرر من التشبث بها، فاليد بإمكانها أن تُمسِك بالأشياء بمفردها كما أن العيون باستطاعتها النظر دون أن يمنحها أحدهم الأمر بذلك، وكذلك بإمكان العقل أن يُفَكر دون أن يقلق المرء حول ذلك الأمر، فعندما نعيش تلك الحالة تتناغم لدينا الرؤية مع الإحساس والتفكير وتتحرر عقولنا من فكرة ذلك المستقبل الذي علينا انتظاره من أجل اكتمال حيواتنا وكذلك سنتخلص من فكرة تبرير الحياة ذاتها، وسنكتفي فقط بمُعايشة لحظتنا الآنية.

Telegram:@mbooks90